الفصل الثالث

المقاصد الكبرى

في رسائل النور

obeikandl.com

obeikandl.com

تمهيد

عبّرت رسائل النور عن المقاصد الكبرى بمقاصد المقاصد، وقد أوردها بديع الزمان في سياقات مختلفة بالعنوان المشار إليها بداية الفقرة، لهذا سنعمل على بيان المراد بمقصد المقاصد أو مقاصد المقاصد من جهة المضمون.

١. المقاصد الكبرى ومقاصد المقاصد

عبّر عن مقاصد المقاصد في قوله: "إنّ الذي يعطي الكلام عظمة وسعة هو: أنّ المقاصد القادمة من أبعد هدف وأعلاه -وهو مقصد المقاصد- يرتبط بعضها ببعض، ويكمل أحدها نقصان الآخر، ويؤدي الواحد منها حق جاره، حتى كأنّ وضع هذا في موضعه يمكّن الآخر في مكانه، ويقرّ الآخر في مستقره.. وهكذا كلٌ يأخذ محله الملائم له، فتنصبّ تلك المقاصد في قصر الكلام المشيد بملاحظة نسب يمين هذا وشماله وكل جهاته. وكأنّ المتكلّم استعار عقولاً إلى عقله للتعاون، وغدا كل مقصد من تلك المقاصد جزءاً تشترك فيه التصاوير المتداخلة، بمثل ما إذا وضع رسام نقطة سوداء في صور متداخلة، فإنّها تكون عين هذا ومنخر ذاك وفم هذا وشامة ذلك.. وهكذا ففي الكلام الرفيع نقاط أمثال هذه".[1]

ونجده في سياقات أخرى يذكر مقاصد جزئية متفرّعة عن مقاصد كلية كبرى، تيسيرا لفهمها واستيعابها، من أمثلة هذا الأنموذج ذكر في سياق تفسير الاسم أنّ

---

١. صيقل الإسلام ١١٠

"المقصد الأول: إنقاذ ذلك الاسم من التحديد والتخصيص، وليعلن شموله المؤمنين عامة كي لا يقع الخلاف والفرقة ولا ترد الشبهات والأوهام، ينتقل بعدها إلى المقصد الثاني، فيؤكّد أنّه جعل ليكون سداً أمام افتراق الفرق والأحزاب الذي كان سبباً في هذه المصيبة الفائتة العظيمة، وذلك بمحاولة التوحيد بينها، ثم يذكر الأستاذ تأسّفه لعدم إسعاف الزمان له،إذ جاء السيل فأوقعه.[1]

وعبّر عن تلك المقاصد أيضا في سياق الحديث عن المقاصد الإلهية من خلق الكون، وفي ذلك يقول: "الدليل الثامن: إنّ هذا الكون مثلما يدل على صانعه، وكاتبه، ومصوره الذي أوجده، والذي يديره، ويرتبه، ويتصرف فيه بالتصوير والتقدير والتدبير كأنه قصر باذخ، أو كأنه كتاب كبير، أو كأنه معرض بديع، أو كأنه مشهر عظيم، فهو كذلك يستدعي لا محالة وجود مَن يعبّر عما في هذا الكتاب الكبير من معانٍ، ويعلم ويعلِّم المقاصد الإلهية من وراء خلق الكون، ويعلّم الحكم الربانية في تحولاته وتبدلاته، ويدرّس نتائج حركاته الوظيفية، ويعلن قيمة ماهيته وكمالات ما فيه من الموجودات. أي يقتضي داعياً عظيماً، ومنادياً صادقاً، وأستاذاً محققاً، ومعلماً بارعاً. فأدرك السائح: أن الكون – من حيث هذا الاقتضاء – يدل ويشهد على صدق هذا النبي".[2]

كما وظّفها في مقام بيان المقاصد الإلهية، إذ يتّضح لجميع أرباب العقول بما يلقّنه من دروس مقدسة سامية وإرشادات حكيمة من القرآن الحكيم.. وليبين بأجمل صورة وأجلاها بالقرآن العظيم المقاصد الإلهية لذلك الصانع "الحكم الحكيم".. وليستقبل بأكمل مقابلة وأتمها مظاهر الحكمة البالغة والجمال والجلال المتجلية في الآفاق، فإنسانٌ هذه مهمته، إنسان ضروري وجوده، بل

---

١. انظر صيقل الإسلام ٤٤٧، سيرة ذاتية ٩٦

٢. المكتوبات ٢٨٤

يســـتلزمه هـــذا الكون، كضرورة الشمس ولزومها لـــه.[١]

واعتبر في الرسائل –رسائل النور– الإنسان أعظم المقاصد الإلهية في الكون، وهو المؤهَّل لإدراك الخطاب الرباني. وقد اختاره سبحانه من بـــين مخلوقاتـــه، واصطفى من بين الإنسان المكرّم مَن هو أكمل وأفضل وأعظم إنسان بأعماله وآثاره الكاملة، ليكون موضع خطابه الجليل باسم النوع الإنساني كافة، بـــل باسم الكائنات جميعاً.[٢]

حصر النورسي مقاصد المقاصد في خمسة تمثّل الأنهار الجارية تحـــت هـــذه الآيات، حتى يفور هذا بكماله في آية.. وينبع ذاك بتمامه في أُخرى.. ويتجلى ذلك بشَرَاشيره في ثالثة، فأدنى ترشّحٍ على السطح يومي بتماس عروق الكلمة بها. وأيضا تتسنبل هذه المعاني في آيات مسوقة لها.[٣] "حتى إن إشارات القرآن الكريم، ومقتضى اسم الله "الحكيم" والحكمة المندرجـــة في الكائنـــات مـــع شهادات الروايات الكثيرة وأمارات لا حد لها.. تدلّ على أن الحسنات تتمثل بصورة ثمرات الجنة والسيئات تتشكل بصورة زقوم جهنم."[٤]

مقصد المقاصد في القرآن الكريم والسنّة المطهّرة الإنسان ، وقد جعل بديع الزمان هذا المقصد نصب عينه، غاية ينشدها وهدفا أساسيا يسعى إليه ســـعيا حثيثا، إذ اعتبر الإنسان أعظم المقاصد الإلهية في الكون، وهو المؤهَّـــل لإدراك الخطاب الرباني. وقد اختاره سبحانه من بين مخلوقاته، واصـــطفى مـــن بـــين الإنسان المكرّم مَن هو أكمل وأفضل وأعظم إنسان بأعماله وآثاره الكاملـــة،

---

١. اللمعات ٥٣٧

٢. اللمعات ٥٥٥

٣. إشارات الإعجاز ٦١

٤. الكلمات ٦٩٤

ليكون موضع خطابه الجليل باسم النوع الإنساني كافة، بل باسم الكائنات جميعاً.[1]

تفرض خدمة هذا المقصد وتحقيقه واقعيا الإحاطة بالمقاصد الكلية في رسائل النور، تلك المقاصد المستوحاة من الوحي الكريم، ويلاحظ القارئ الفاحص أنّها تصب جميعا في مقصد خدمة الإنسان، وبيّن من عناوينها أنّنا أمام الغايات الكبرى لوجود الإنسان من جهة وآليات ضبطها ومصادر فاعليّتها وتفاعلها الإنساني مع الحياة المادية والمعنوية.

من منطلق ما سبق تقريره، ننتقل إلى بيان مقاصد القرآن الكريم، كما بيّنها بديع الزمان النورسي في رسائل النور.

٢. المقاصد الأساسية للقرآن الكريم

ترمي رسائل النور إلى بيان المقاصد الأساسية للقرآن الكريم، وقد صرّح المؤلّف بهذه المعاني في قوله: "اعلم! إن مقاصد القرآن الأساسية وعناصره الأصلية أربعة: التوحيد، والرسالة، والحشر، والعدالة مع العبودية. فيصير سائر المسائل وسائل هذه المطالب. ومن القواعد: عدم التعمق في تفصيل الوسائل، لئلا ينتشر البحث بالاشتغال بما لا يعني فيفوت المقصد. فلهذا قد أبهم وقد أهمل وقد أجمل القرآن في بعض المسائل الكونية. وكذا إن الأكثر المطلق من مخاطب القرآن عوام وهم لا يقتدرون على فهم الحقائق الغامضة الإلهية بدون توسيط التمثيل والتقريب بالإجمال، ولا يستعدون في كل وقت لمعرفة مسائل لم

---

١. اللمعات ٥٥٥

obeikandl.com

يوصل إليها بعدُ القرون الطويلة إلا قليل من الفلاسفة. فلهذا أكثر القرآن من التمثيل، ومن التمثيل بعض المتشابهات فإنها تمثيلات لحقائق غامضة إلهية. وأجمل فيما كشفه الزمانُ بعد عصور وبعد حصول مقدمات مرتبة.."[1]

وصرّح في مواضع كثيرة أنّ مقاصد القرآن الكريم الأساسية التي عبّر عنها بالأقطاب الأربعة، حيث ذكر أنّها أشبه بالجواب عن سؤال واحد، جاءت بياناً لحادثات أحكامٍ متعددة متغايرة، مع كمال الانتظام كأن الحادثة واحدة، ونزل متضمناً لتنزلات إلهية في أساليب تناسب أفهام المخاطبين، لاسيما، المنزل عليه "عليه السلام" بحالات في التلقي متنوعة متخالفة، مع غاية التماثل والسلاسة، كأن الحالة واحدة.. وجاء متكلماً متوجهاً إلى أصناف مخاطبين متعددة متباعدة، مع سهولة البيان وجزالة النظام ووضوح الأفهام كأن المخاطب واحد، بحيث يظن كلُ صنف كأنه المخاطب بالأصالة.. ونزل مهدياً وموصلاً لغايات إرشادية متدرجة متفاوتة، مع كمال الاستقامة والنظام والموازنة كأن المقصد واحد، تدور تلك المقاصد والغايات على الأقطاب الأربعة: وهي "التوحيد، والنبوة، والحشر، والعدالة". فبسر امتلائه من التوحيد، التأم وامتزج وانتظم واتحد.[2]

وقد حوى القرآن الكريم ذكر الأقطاب بطريقة لم يأت ولن يأتي مثلها ولن يدانيها شيء قط، ذلك لأن القرآن الكريم إنما هو خطاب من رب العوالم جميعاً وكلام من خالقها، وهو مكالمة لا يمكن تقليدها – بأي جانب من الجوانب – وليس فيه أمارة تومئ بالتصنع. ثم إنّ المخاطب هو مبعوث باسم البشرية قاطبة، بل باسم المخلوقات جميعاً، وهو أكرم من أصبح مخاطباً وأرفعهم ذكراً،

---

١. المثنوي العربي النوري ٧٥

٢. انظر المثنوي العربي النوري ٢٣٠، إشارات الإعجاز ٢٣

وهو الذي ترشح الإسلام العظيم من قوة إيمانه وسعته، حتى عرّج به إلى قاب قوسين أو أدنى فنـــزل مكلّلاً بالمخاطبة الصمدانية. ثم إنّ القرآن الكريم المعجز البيان قد بيّن سبيل سعادة الدارين، ووضّح غايات خلق الكون، وما فيه مـــن المقاصد الربانية موضّحاً ما يحمله ذلك المخاطب الكريم من الإيمـــان الـــسامي الواسع الذي يضمّ الحقائق الإسلامية كلها عارضاً كل ناحية من نواحي هـــذا الكون الهائل ومقلباً إيّاه كمن يقلب خارطة أو ساعة أمامه. معلّماً الإنـــسان صانعه الخالق سبحانه من خلال أطوار الكون وتقلباته، فلاريب ولابد أنّـــه لا يمكن الإتيان بمثل هذا القرآن أبداً، ولا يمكن مطلقاً أن تنال درجة إعجازه."[١]

وتتميّز تلك الأقطاب الأربعة المعبّر عنها بالمقاصد بورودها في أقل القليـــل من آي القرآن الكريم، بحيث تتجلى للعاقل المتدبّر في كل سور القرآن الكريم، فكما تتراءى هذه المقاصد الأربعة في كلّه، كذلك قد تتجلى فيه سورةٍ سورة، بل قد يُلْمَح بها في كلامٍ كلام، بل قد يُرْمَز إليها في كلمةٍ كلمة، لأن كل جزء فجزء كالمرآة لكلٍ فكلٍ متصاعداً، كما أنّ الكلّ يتـــراءى في جـــزءٍ فجـــزءٍ متسلسلا، فترى المقاصد الأربعة في "بسم الله" وفي "الحمد لله".[٢]

لهذا فالمقاصد جلية واضحة في كل السور، نرى في السورة الواحـــدة أحكامـــا ضمنية: كالإشارة إلى التوحيد والنبوة والحشر والعدل أي المقاصد الأربعة المشهورة، مع أنّ في أكثر السور يكون المقصود بالذات واحداً منها، والباقي استطراديا. فلِمَ لا يجوز أن يكون لجهة أو حُكمٍ أو مقام منها مناسبة مخصوصة لروح السورة وتكـــون موضوعاً للمقام بل فهرسة إجمالية باعتبار تلك الجهات والمقامات.[٣]

---

١. الشعاعات ١٧٩

٢. انظر إشارات الإعجاز ٢٤

٣. إشارات الإعجاز ٤٠

وقد لخّص بديع الزمان المقاصد الأساسية للقرآن الكريم بأقطاب أربعة هي: التوحيد، والنبوة، والحشر، والعدالة، وأضاف إليها في بعض السياقات العبودية، وردت كالاستطراد المرتبط بالعدالة أساسا بوصفه مزهرا من مظاهرها.

يرى بديع الزمان أن مقاصد القرآن الكريم تتلخّص في التوحيد والنبوة والحشر والعدالة، وهي بمجموعها كما هو بيّن من عناوينها جعلت لخدمة الإنسان معرفيا واجتماعيا وحتى إنسانيا.

أولا : المقصد الأول : التوحيد

احتفى القرآن الكريم بمقصد التوحيد، واعتنى به عناية فائقة، تشهد لها مستودعات الخالق الكريم في الخلق بمظاهره المادية والمعنوية، إذ يظهر التوحيد في كل شيء غاياتٍ كثيرة مهمة من جهة نظره إلى صانعه، ومن تلك الغايات إظهار الشيء لأسماء خالقه، كأنّ الشيء كلمة واحدة جامعة لرموز الأسماء، فتدل عليها[1].

النقطة الأولى: أساليب التعبير عن هذا المقصد في رسائل النور

تعد رسائل النور في مجال بيان مقصد التوحيد امتثالا لما ورد في الوحيين، امتثال له حضوره في مضمون الرسائل ومنهجها زيادة إلى أبعادهما المعرفية والتربوية والحضارية و...

١. أسلوب التأسيس للتوحيد

نسج بديع الزمان في التأسيس للمقصد الأول بما ورد في الأصلين وخاصة القرآن الكريم، فترى هذا الأمر في جملة متناغمة تتوزّع على حاجات الإنسان (المخاطب) بالتوحيد.

---

١. المثنوي العربي النوري ٤٦٦

أ . أسلوب المحاججة العقلية:

يشيع هذا النوع من العرض حاجة الإنسان إلى القناعة العقلية بوصفها من أهمّ وسائل التواصل مع المخالف من جهة وبوصفها معبّرة عن صورة من صور مناط التكليف من جهة أخرى (العقل مناط التكليف).

رمى بديع الزمان إلى التأسيس للمقصد الأول (التوحيد) بما ورد في كتاب الله وفق استعمالات بعض المهتمين بالنظر في مباحث العقائد الإسلامية، فتراه تارة مستصحبا لما يشبه دليل التمانع عند المتكلّمين، وقد عرض الدليل وفق ما يوافق عقلية ومعارف أهل عصره، وفي هذا السياق يقول – رحمه الله –: "فبمقتضى قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا﴾ (سورة الأنبياء: ٢٢) إذا ما حلّ مختاران في قرية، ووالیان في ولاية وسلطانان في بلد، فالانتظام يختل حتماً والانسجام يفسد نهائياً. والحال أنّ الانتظام الدقيق واضح بدءاً من جناح البعوضة إلى قناديل السماء، فليس للشرك موضع ولو بمقدار جناح بعوضة، فما دام هؤلاء يمرقون من نطاق العقل ويجافون الحكمة والمنطق ويقومون بأعمال منافية كلّياً للشعور والبداهة، فلا يصرفك تكذيبهم لك عن التذكير والإرشاد."[1].

استعمل بديع الزمان أسلوب التوجيه العقلي تيسيرا لاستيعاب المعاني العظيمة المكنونة في التوحيد، حتى ليغدو رفض التوحيد عند المسلمين منافيا لبداهة العقول، وفي ذلك يقول: "اعلم أنّه قد يستعظم المرء النتيجة وهي التوحيد المحض الخالص، ولا يسعها ذهنُه الكاسد، أولا يتحملها خياله الفاسد، فيشرع يردّ براهينها الصحيحة القاطعة، ويتعلّل بأنّ نتيجة بهذه العظمة لا يمكن أن يقبلها ويقيمها هذا البرهان، ولو كان في غاية القوة. فالمسكين لا يعرف أن قيوم النتيجة الإيمان، وما البرهان إلاّ منفذ ينظر إليها.. أو مكنسة يطهّر الأوهام

١. الكلمات ٤٤٩

عنها. مع أنّ البرهان ليس واحداً، بل لها براهين عدد رمال الدهناء، وبمقدار حصى البطحاء وقطرات الأمطار وأمواج البحار."[1] ليس هذا فحسب، بل إنّ مشاهدة براهينه العظيمة من جميع جوانبها تورّث العلم اليقيني أنّ الذي يعلنه واثق كلّ الثقة من نتيجة التوحيد، ومطمئن اطمئناناً لا يشوبه تردد قط، إذ يبني جميع الأمور على هذه النتيجة الرصينة، بل يجعلها حجر الزاوية لكلّ شيء في الوجود.. فمثل هذا الأساس الراسخ لا يمكن أن يكون تكلّفاً وتصنّعاً البتة، بل يجعل الإعجاز الباهر على هذا البرهان مستغنياً عن تصديق الآخرين له، فأنباؤه كلها صدق، ثابتة وحق وحقيقة بنفسها.[2]

ب. أسلوب التذكير مخاطبة الوجدان (القلب)

التوحيد بالمعنى الوجداني ووفق مسلك بديع الزمان في العرض يورّث معاني عظيمة في قلوب معتقديه، ومخاطبة الوجدان بأسلوب التذكير تكون نتيجته الأخروية المحبّة المشروعة المكلّلة بالشكر لله، نحو الأطعمة اللذيذة والفواكه الطيّبة في الدنيا، هي تلك الأطعمة والفواكه الطيّبة اللائقة بالجنة الخالدة... كما ينصّ عليه القرآن الكريم، هذه المحبة، محبة ذات اشتياق واشتهاء لتلك الجنة وفواكهها، حتى أنّ الفاكهة التي تأكلها في الدنيا وتذكر عليها "الحمد لله" تتجسّم في الجنة فاكهة خاصة بها وتقدّم إليك طيبة من طيبات الجنة. فأنت تأكل هنا فاكهة، وهناك "الحمد لله" مجسمة في فاكهة من فواكه الجنة... وحيث إنك تقدم شكراً معنوياً لذيذاً برؤيتك الإنعام الإلهي والالتفات الرباني في الأطعمة والفواكه التي تتناولها هنا، فستسلم إليك هناك في الجنة أطعمة

---

١. المثنوي العربي النوري ٣٢٥

٢. انظر المثنوي العربي النوري ٤٢٧

لذيذة وفواكه طيبة، كما هو ثابت في الحديث الشريف وبإشارات القرآن الكريم، وبمقتضى الحكمة الإلهية ورحمتها الواسعة.[1]

ج. التركيب بين مخاطبة العقل والوجدان

وتأسيسا لمعاني التوحيد في القلوب والعقول اعتنى القرآن الكريم بإبطال أقوال المناوئين للتوحيد من جهة وتنبيها للمؤمنين من جهة أخرى، أشار إلى تلك المعاني في قوله: "إنّ أمثال الآيات الكريمة التالية تبين عظمته سبحانه وتعالى وكبرياءه المطلقين: فابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبضَتُهُ يَومَ الْقِيَامَة وَالسَّمواتُ مَطوِيَّاتٌ بِيَمِينِه﴾(الزمر: ٦٧) إلى قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَينَ الْمَرءِ وَقَلْبِه﴾(الأنفال: ٢٤) ومن قوله تعالى: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ وَكِيلٌ﴾(الزمر: ٦٢) إلى قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾(البقرة: ٧٧) ومن قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ﴾(الأعراف:٥٤) إلى قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم وَمَا تَعْمَلُونَ﴾(الصافات:٩٦). ومن قوله تعالى: ﴿مَا شَاءَ اللهُ لاَ قُوَّةَ إلاَّ بِاللهِ﴾(الكهف:٣٩) إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾(الإنسان:٣٠). هذه الآيات الجليلة تبيّن إحاطة عظمة ربوبيته سبحانه وكبرياء ألوهيته بكلّ شيء.. هذا السلطان الجليل، سلطان الأزل والأبد يهدّد بشدة ويعنّف ويزجر ويتوعّد هذا الإنسان الذي هو في منتهى العجز ومنتهى الضعف ومنتهى الفقر، والذي لا يملك إلاّ جزءاً ضئيلاً من إرادة اختيارية وكسباً فقط، فلا قدرة له على الإيجاد قطعاً. والسؤال الوارد هو: ما أساس الحكمة التي تبنى عليها تلك الزواجر والتهديدات المرعبة والشكاوى القرآنية الصادرة من عظمته الجليلة تجاه

---

١. انظر الكلمات ٧٧٥

هـــذا الإنســـان الضعيف، وكيف يتم الانســـجام والتوفيق بينهما."[١]

استفاد النورسي في التأسيس لمقصد التوحيد بما ورد في القرآن الكريم مـــن عناية بالأسماء الحسنى في وظيفتيها المعرفية والاجتماعية، يشير إلى هذه المعـــاني في كثير من نصوصه، منها قوله – رحمه الله منبّها ومعلّما –: "اعلم! أنّ الأسماء الحسنى كلٌ منها يتضمن الكلَّ إجمالاً، كتضمن الضياء للألوان السبعة.. وكذا كلٌ منها دليل على كلّ منها، ونتيجةٌ لكلٍ منها، بينها تعاكسٌ كالمرايا.فيمكن ذكرها كالقياس الموصول النتائج متسلسلاً، وكالنتيجة المترتبة الدلائل. إلا أن الاسم الأعظم الواحد يتضمن الكلَّ فوق هذا التضمن العام. فيمكن للـــبعض الوصول إلى نور الاسم الأعظم بغيره من الأسماء الحسنى. فيتفـــاوت الاســـم الأعظمُ بالنظر إلى الواصلين. والله أعلم بالصواب."[٢]

د. عرض من طبيعة مخصوصة

والتوحيد الذي نظم القرآن عقده ورتّب عناصره ليس عقليـــا صـــرفا ولا ذوقيا بحتا، بل إنّ التوحيد وفق نسق القرآن الكريم، كمـــا صـــوّره الأســـتاذ النورسي، توحيد ذوقي لا ينحصر في نظر العقل والفكر، إذ أنّ شدة الاستغراق في التوحيد – بعد توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية – يُفضي إلى وحدة القدرة، أي: لا مؤثر في الكون إلاّ الله. ثم يؤدي هذا إلى وحدة الإرادة، وهذا يـــسوق إلى وحدة الشهود ثم إلى وحدة الوجود. ومن بعدها رؤية وجود واحد ثم إلى رؤية موجود واحد.

ونظرا لخطورة ما انتهى إليه أمر التوحيد عند القائلين بوحـــدة الوجـــود،

---

١. الكلمات ١٩٠

٢. المثنوي العربي النوري ٢٣٦

استبعد الأستاذ البدع المتسرّبة إلى رحاب التوحيد، من هنا قال معلّقاً على الصوفية: "فشطحات علماء الصوفية التي هي من قبيل المتشابهات لا تقام دليلاً على هذا المذهب، فالذي لم تتخلص روحهُ من تأثير الأسباب ولم تتجرد من دائرتها إذا ما تكلم عن وحدة الوجود يتجاوز حدّه، والذين يتكلمون به إنّما حصروا نظرهم في "واجب الوجود" حصراً بحيث تجرّدوا عن الممكنات فأصبحوا لا يرون إلاّ وجوداً واحداً بل موجوداً واحداً.. نعم، إن رؤية النتيجة ضمن الدليل، أي رؤية الصانع الجليل ضمن موجودات العالم شيء ذوقي ولا يمكن بلوغها إلاّ باستغراق ذوقي. فإدراك حقيقة جريان التجليات الإلهية في جداول الأكوان، وسريان الفيوضات الإلهية في ملكوتية الأشياء، ورؤية تجلي الأسماء والصفات في مرايا الموجودات.. أقول: إن إدراك هذه الحقائق أمرٌ ذوقي. إلاّ أن أصحاب مذهب وحدة الوجود لضيق الألفاظ عبّروا عن هذه الحقيقة بالألوهية"[1]

٢. أسلوب إبطال أقوال المناوئين للتوحيد

قطعا لطريق المكابرة يستبعد الأستاذ المحاججة النقدية الجافة، ويركّز على التذكير المازج بين مسلكي إقناع العقول والتوجّه إلى القلوب، ويقرر تلك الحقيقة بأسلوب تذكري تربوي، فيقول: "اعلم! يا من يستعظم النتيجة ويستضعف دليلها! أنّه ما من دليل يشهد على حقيقةٍ من الحقائق الإيمانية، إلاّ ويزكيّه ويؤيّده ويقوّيه ويمدّه كلُّ ما قام على الصدق؛ فكأنّ كلَّ مالا يعدّ من الشواهد والشهداء والبراهين والأمارات، كل منها يضعُ إمضاءه على سند كلٍ من أخواتها، فيختم كلٌّ منها خاتمَ تصديقه على منشور كلِّ واحدٍ... خلافاً

---

١. المثنوي العربي النوري ٤٣٢

للنافي، إذ للمنافاةِ بين النافي والمثبتِ يُنفى منَ النَّافي ما يُثبِتُ للمُثبتِ.فألفُ نافٍ كفردٍ.. [1]

٣. مميزات أسلوبي التأسيس والإبطال

أ. البساطة والوضوح

كان مسلكه واضحا وبسيطا يبتعد عن التقعير والتعقيد، ذلك أنّه موجّه لجمهور الناس، إذ من مقتضيات ذلك مراعاة سير الضعفاء في ميدان البحث والاستدلال، فكانت حججه في الجملة واضحة جلية عبارة ومضمونا وصياغة، ومن مترتّبات هذا السمعى تحلية القلوب والعقول بالتوحيد بيسر ووضوح، فإذا حيل دون ذلك بمشوشات فكرية أو (علمية) عمدت رسائل النور وفق مسلك القرآن الكريم إلى تخلية القلوب من الآراء المناوئة أوالمخالفة، فكان المسلك جامعا بين البناء (الإنشاء) والهدم (النقد) في أسلوب بسيط بيّن.

يشهد لهذا المعنى ما استقاه الأستاذ بديع الزمان من القرآن الكريم في وضوحه وبساطته، فيقول -رحمه الله-: "القرآن إنّما يبحث عن الكائنات استطراداً للاستدلال على ذات الله وصفاته، ومن شرط الدليل أن يكون ظاهراً وأظْهَر من النتيجة، والنتيجة معرفة ذات الله وصفاته وأسمائه. فلو قال على ما يشتهيه أهل الفن: "يا أيّها الناس فانظروا إلى الشمس في سكونها، وإلى الأرض في حركتها لتعرفوا عظمة قدرة خالقها"، لصار الدليل أخفى وأغمض من النتيجة وأبعد بمراتب من فهم أكثر البشر في أكثر الأزمان والأعصار، مع أنّ حق الأكثر المطلق أهم في نظر الإرشاد والهداية. فمراعاة فهمهم لا تنافي

---

١. انظر المثنوي العربي النوري ١٩٢

استفادة المتفلسفين المتعمقين القليلين. ولكن في مراعاة هذا الأقل محرومية الأكثر في أكثر الأوقات."[1]

وبيّن من أسلوبه الذي لا لبس فيه أنّ التوحيد من السهولة والوضوح ما يجعل تصوّر نقيضه في منتهى البعد، إذ النظر بعيني البصر والبصرية في الكون بعناصره المادية والمعنوية يخلص بالباحث إلى التوحيد والوحدة، بوصفها نتيجة موضوعية لتلك المقدّمات التي لا تحصى عدّا، يشهد لهذه المعاني، قول النورسي:"وَفِي الوَحْدَةِ سُهولَةٌ مُطْلَقَةٌ، وَفِي الكَثْرَةِ وَالشِّرْكَةِ صُعُوبَةٌ مُنغَلِقَةٌ. إنْ أُسْنِدَ كُلُّ الأشْيَاءِ للوَاحِد، فَالكَائِنَاتُ كَالنَّخْلَةِ وَالنَّخْلَةُ كَالثَّمَرَةِ سُهولَةً في الابْتِدَاعِ.. وَإنْ أُسْنِدَ للكَثْرَةِ فَالنَّخْلَةُ كَالكَائِنَاتِ وَالثَّمَرَةُ كَالشَّجَرَاتِ صُعُوبَةً في الامْتِنَاعِ، إذْ الوَاحِدُ بالفَعْلِ الوَاحِدِ يُحَصِّلُ نَتِيجَةً ووَضْعِيةً للكَثِيرِ بلا كُلْفَةٍ ولا مُبَاشَرَةٍ، لَو أحِيلَتْ تِلْكَ الوَضْعِيَّةُ وَالنَّتِيجَةُ إلى الكَثْرَةِ لا يُمْكِنُ أنْ تَصِلَ إلَيهَا إلاّ بتَكَلُّفَاتٍ وَمُبَاشَرَاتٍ وَمُشَاجَرَاتٍ، كَالأمِيرِ مَعَ النَّفَرَاتِ وَالبَانِي مَعَ الحَجَرَاتِ وَالأرضِ مَعَ السَّيَّارَاتِ والفَوَّارَةِ مَعَ القَطَرَاتِ وَنُقطَةِ المَرْكَزِ مَعَ النُّقَطِ في الدَّائِرَةِ".[2]

ب. المحاججة العقلية

لم يكتف بديع الزمان بالبناء (التأسيس) بل جاوزه إلى التمحيص والنقد، فرمى إلى تحرير القلوب والعقول من المعارف المزاحمة، فيذكر محذّرا: "إنّ ما يتوهم بقصور النظر من الاستبعاد والاستغراب والحيرة والكلفة المنجرة إلى الاستنكار في إسناد كلّ شيء إلى الواجب الوجود الواحد الأحد. فتلك الاستبعاد والاستغراب والحيرة والكلفة والمعالجات تنقلب حقيقية عند عدم

١. المثنوي العربي النوري ٧٢

٢. المثنوي العربي النوري ١٤٢

الإسناد إلى صاحب مرتبة الوجوب والوحدة، بل تتضاعف تلك الأمور عند إسناد الآثار إلى جانب الإمكان والكثرة والأسباب وأنفسِها، عددَ أجزاء الكائنات.. فما يتوهم في إسناد الكل إلى الواجب يتحقق في إسناد جزء واحد إلى غيره تعالى. بل الأولُ أسهل وأيسر، إذ صدور الكثير عن الواحد أقل كلفة من صدور الواحد عن الكثير المتشاكسين العُمي الذين اجتماعهم يُزيدهم عمىً، إذ النحلة لو لم تخرج من يد قدرة الواجب، لزم اشتراك ما في الأرض والسموات في وجودها!.. بل تترقى الكلفة والمعالجة في الجزء الواحد من الذرة بالنسبة إلى الوجوب إلى أمثال الجبال، ومن الشعرة إلى أمثال الحبال، لو أحيل على الأسباب.. إذ الواحد بالفعل الواحد يحصّل وضعية ومصلحة للكثير، لا يصل إلى عين تلك الوضعية والنتيجة الكثيرُ، إلاّ بفعل كثير، كالأمير بالنسبة إلى نفراته، والفوّارة إلى قطراتها، والمركز إلى نقاط دائرته.فبفعل واحدٍ تصل هذه الثلاثة إلى تحصيل وضعيةٍ للكثير، ونتيجةٍ لاتصل النفرات والقطرات والنقاط لو أحيلت عليها إلاّ بأفعالٍ كثيرة وتكلفاتٍ عظيمة. بل الاستغراب والاستبعاد الموهومان في طرف الوجوب، ينقلبان هنا إلى محالات متسلسلة."[1]

ج. التذكير الوجداني

الذكر الذي علّمه الله المسلمين يشهد بحقيقة التوحيد الناصعة، فما كانت تلك المعارف إلا شهودا إضافيين يؤيّدون كلام ربّ العالمين وتوجيهاته المتجلّية في كلّ مظاهره في الكون، "فانظر وقل: الله أكبر.. هو القادر المقيم.. هو البارئ العليم.. هو اللطيف الكريم.. هو الودود الرحيم.. هو الجميل العظيم.. هو نقاش العالم.. إن شئت أن تعرف هذا العالم ما هو كله أجزاؤه، الكائنات ما هي نوعاً وجزئياتٍ، فإنّما هو هي خطوط قضائه.. رسوم قدره.. في تنظيم الذرات.. في تعيين

---

١. المثنوي العربي النوري ١١٢

الغايات.. في تقدير الهيئات."[1] نحاول تقريب هذه الحقيقة الدقيقة والعظيمة الواسعة في الوقت نفسه إلى الأذهان بمثال، نصفّيه بمصاف ونحلله بمحللات مختلفة، ومهما يطل البحث بنا فإنه يعدّ قصيراً، فينبغي عدم السأم."[2]

د. التركيب بين برهان العقل ومخاطبة الوجدان

يظهر الجمع بين مخاطبة العقول والقلوب في مضمون الشواهد وصيغها، فتتوافق الشواهد الكونية وتتناغم فيما بينها للدلالة على التوحيد، يستشف هذا الأمر في أسماء الله الحسنى، كما أنّ في كل شيء وجوهاً كثيرة جداً متوجهة -كالنوافذ- إلى الله سبحانه وتعالى، بمضمون الآية الكريمة: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّ يُسَبِّحُ بِحَمدِهِ﴾ إذ أن حقائق الموجودات وحقيقة الكائنات تستند إلى الأسماء الإلهية الحسنى.

ويذهب الأستاذ إلى أنّ حقيقة كلّ شيء تستند إلى اسم من الأسماء أو إلى كثير من الأسماء، ويتجلى هذا التقرير والبيان فيما يأتي:

- الإتقان الموجود في الأشياء يستند إلى اسم من الأسماء.
- علم الحكمة الحقيقي يستند إلى اسم الله "الحكيم".
- علم الطب يستند إلى اسم الله "الشافي".
- علم الهندسة يستند إلى اسم الله "المقدّر"..

وهكذا كل علم من العلوم يستند إلى اسم من الأسماء الحسنى وينتهي إليه، كما أنّ حقيقة جميع العلوم وحقيقة الكمالات البشرية وطبقات الكمّل من البشر، تستند كلها إلى الأسماء الإلهية الحسنى، حتى قال أولياء محققون إن: "الحقائق الحقيقية للأشياء، إنّما هي الأسماء الإلهية الحسنى، أما ماهية الأشياء

---

١. المثنوي العربي النوري ٤٧٣

٢. الكلمات ٧٤٩

obeikandl.com

فهي ظلال تلك الحقائق "، بل يمكن مشاهدة آثار تجلي عشرين اسماً من الأسماء على ظاهر كل ذي حياة فحسب.

هـ. ضرب الأمثلة

دلّت الآيات الكونية المبثوثة في ثنايا عناصر الكون المادية والمعنوية على التوحيد، نبّه الأستاذ إلى هذا في قوله: "فهذا مثالُ آيةٍ واحدة للتوحيد تَظهر على سطح الأرض في فصل الربيع والصيف! فتأمل إذن كيف يظهر ختمُ الواحدية بجلاء على تصريف الأمور في الربيع الهائل على سطح الأرض وهو في منتهى الحكمة والبصر، ذلك لأن هذه الإجراءات المشاهَدة، هي في انتظام مطلق، وخلقة تامة، وصنعة كاملة بديعة، مع أنّها تجري في سعة مطلقة، ومع هذه السعة فهي تتم في سرعة مطلقة، ومع هذه السرعة فهي ترد في سخاء مطلق. ألا يوضح هذا أنه ختمٌ جلّي بحيث لا يمكن أن يمتلكه إلاّ مَن يملك علماً غير متناهٍ وقدرة غير محدودة."[1]

وتأكيدا لبيان مسألة التوحيد، ينبّه بديع الزمان إلى الفرق بين مدينتي الكفّار والمؤمنين، تأسيسا لمعنى الوظيفة المعرفية والمنهجية للإيمان بالله، فيذكر تلك المعاني في صيغة تربوية تعليمية، يشهد لها مطلع التوجيه، حيث قال رحمه الله: "اعلم! أنّ الفرق بين مدنية الكافرين ومدنية المؤمنين، أنّ الأولى: وحشةٌ مستحالة ظاهرها مزيّن، باطنها مشوّه، صورتها مأنوسة، سيرتها موحشة.. ومدنية المؤمنين باطنها أعلى من ظاهرها، معناها أتمّ من صورتها، في جوفها أنسية وتحبب وتعاون. والسر: أن المؤمن بسر الإيمان والتوحيد يرى أخوةً بين كل الكائنات، وأنسية وتحببا بين أجزائها، لاسيما بين الآدميين ولاسيما بين

---

١. الكلمات ٣٣٧

obeikandl.com

المؤمنين. ويرى أخوةً في الأصل والمبدأ والماضي، وتلاقياً في المنتهى، والنتيجة في المستقبل. وأما الكافر فبحكم الكفر له أجنبية ومفارقة بل نوعُ عداوةٍ مع كل شيء لا نفع له فيه، حتى مع أخيه، إذ لا يرى الأخوة إلاّ نقطة اتصال بين افتراق أزلي ممتد، وفراق أبدي سرمد، إلاّ أنه بنوع حميةٍ ملّية أو غيرة جنسية تشتد تلك الأخوة في زمان قليل، مع أنّ ذلك الكافر لا يحب في محبة أخيه، إلاّ نفس نفسه. وأما ما يُرى في مدنية الكفار من المحاسن الإنسانية والمعالي الروحية، فمن ترشحات مدنية الإسلام، وانعكاسات إرشادات القرآن وصيحاته، ومن بقايا لمعات الأديان السماوية."[1]

و. المسعى الهادف وتجاوز العبثية

لم يكتف في سياق بيان أهمية التوحيد منهجيا ومعرفيا بالبيان المجرّد، بل جاوزه بضرب الأمثلة الواقعية المشاهدة، تؤكّد تلك المعاني المسعى الهادف واستبعاد العبثية، يقرر هذه الحقيقة قوله: "فإن شئت تحقيقه فانظر إلى هذه الموازنة وهي: أن الموجودات إما فاعلها جانبُ الإمكان والكثرة وإما جانبُ الوجوب والوحدة. فما يُتوهم بقصور النظر من الكلفة والاستبعاد، والاستغراب في إسناد كل شيء إلى الواجب الوجود، تصير محققة عند الإسناد إلى الكثرة، لقصور أي سبب كان، وضعفه عن تحمل أي مسبَّب كان، في جانب الكثرة دون الوحدة.فما يُتوهمُ هناك، متحقق هنا، ثم بعد هذا تتضاعف الكلفة والاستبعاد والاستغراب عدد أجزاء الكائنات مع أنّها في الإسناد الأول كانت واحدة موهومة وصارت هنا حقيقة متضاعفة عدد أجزاء الكائنات، إذ في الإسناد إليه تعالى نسبةُ كثيرٍ غير محدود إلى واحدٍ مباين الماهية لها، وفي

---

١. المثنوي العربي النوري ١٨١

obeikandl.com

جانب الكثرة نسبةُ واحدٍ إلى كثير غير محدود متماثلة الماهية، إذ النحلة مثلاً، لو لم تُسند إلى الواجب الواحد، لزِمَ اشتراك السماوات والأرض في إيجادها لعلاقتها بأركان العالم. مع أنّ صدور الكثير عن الواحد أسهلُ بمراتب من صدور الواحد عن الكثيرين المتشاكسين الصُم العمي الذين لا يزيد اختلاطُهم إلاّ أعميتَهم وأصميتهم. ثم مع ذلك إنّ الكلفة لو كانت في الإسناد الأول مثل ذرة، تترقى في الإسناد الثاني إلى أمثال الجبال، إذ الواحد بالفعل الواحد يحصل وضعية ونتيجة للكثير، لا يتيسر للكثير لو أحيلت عليهم أن يحصلوا تلك الوضعية، أو يصلوا إلى تلك النتيجة إلاّ بأفعال كثيرة وتكّلفات عظيمة، كالأمير مع نفراته، والفوارة مع قطراتها، والمركز مع نقاط دائرته."[1]

النقطة الثانية: أهمية التوحيد اجتماعيا

قصد بديع الزمان التنبيه إلى الأبعاد الوظيفية للحقائق الإيمانية، وبذلك تجاوز مسلك تقرير العقائد بوصفها حقائق عقلية جافة منفصلة عن متطلّبات القلوب والرسالة الاجتماعية للمؤمن، فيبيّن أن التوحيد في أصل وضعه رسالة اجتماعية تسع مجموع ميادين الفعل الإنساني؛ فترى أثرها في التصرّفات الشخصية ومضامينها الاجتماعية، ونظرا لأهمية تلك الأبعاد الاجتماعية في الإيمان، جعل تأخّرها أمارة على فقد أو إمكان فقد الإيمان نفسه[2]، وقد يسّر الله لمؤمن القيام بهذه المهمة؛ ووضع في يده الحقيقة الرائعة ما يكون الحديد كالشمع فيها، وهذا ييسّر له تغيير شكله كما شاء خالقه ورازقه، ويستمد منه قوة عظيمة لإرساء أركان خلافته وإدامة دولته وحكمه. فما دام هذا الأمر ممكناً وواقعاً فعلاً، وذا أهمية بالغة في حياتكم الاجتماعية فأنتم يا بني آدم إن أطعتم أوامر الله التكوينية

---

١. المثنوي العربي النوري ١٨٤

٢. قال تعالى: ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء و المنكر﴾

تُوهَب لكم أيضاً تلك الحكمة والصنعة، فيمكنكم بمرور الزمن أن تقتربوا منهما وتبلغوهما.[1]

الظفر بمعرفة الله طريق من رام الحصول على علم الحقيقة والحكمة الحقّة، إذ حقائق الموجودات كلّها، إنّما هي أشعة اسم الله الحق، ومظاهر أسمائه الحسنى، وتجليات صفاته الجليلة. إنّ حقيقة كلّ شيء مادياً كان أو معنوياً وجوهرياً أو عرضياً، وحقيقة الإنسان نفسه إنّما تستند إلى نور من أنوار أسمائه تعالى وترتكز على حقيقته. وإلاّ فهي صورة تافهة لا حقيقة لها.[2]

ثانيا: المقصد الثاني : النبوة

يصنع وعي المسلم بالحياة الاجتماعية بجميع مضامينها وخلفياتها النظرية (الحضارية، والفكرية، والسياسية...) تعلّقه بأصول دينه، وتجسيدها برنامجا معيشا، تنصبغ به جميع تصرفاته.

ويعد الانخراط في سلك العبودية، بناء على الأصول الإسلامية الثلاث التوحيد والنبوة والمعاد أهم ما يصنع وعي المسلمين ويكسب حياتهم بُعدا إنسانيا منظورا، ويدفعهم إلى البذل الحضاري المستمر، فكيف السبيل إلى تصوّر ذلك؟

معرفة الله، ليست من قبيل المعارف التي تحشى بها الرؤوس ويُتباهى بها في المجالس وتُطلب بها المغانم والمكاسب والمناصب، بل هي معارف تعيش في الأعماق، تكسب العقل عقلا والقلب انكشافا والسلوك وضوحا ومقصدا إنسانيا ظاهرا، يتجلى – كما يقول الصوفية على تنوّع مشاربهم في عشق

---

١. انظر الكلمات ٢٨٢

٢. انظر الكلمات ٥٥٥

obeikandl.com

مهيمن يطلب بموجبه العاشق هروبا من الفناء وتعلقا بالبقاء[1] بواسطة الارتباط العاطفي والأخلاقي والاجتماعي بالدين.

ومادام الدين مرتبطا بالوحي، ولا طريق إليه إلا النبوة، كانت منزلتها وستبقى سامقة، لما لها من أهمية في التأسيس للارتباط بالدين والتعرّف على مسالك العبودية، إذ لو تصورنا حبا للعبودية دون مسالك النبوة، لتصوّرنا المحال ولكانت العبودية سببا في الفرقة عوض أن تكون وسيلة توحيد، إذ ليس مستبعدا – مع التفاوت الثقافي والاستعدادات النفسية والعقلية – أن يتولّد الاختلاف ثم التنافر حال الغفلة عنها، بسبب عدم إمكان الاتفاق حول طريقة العبادة، فيكون الرسول ركنا ركينا في وحدة العبادة ومقاصدها الاجتماعية والحضارية.

إن العبودية لله في طريق النبوة تستمد فاعليتها في العقل والقلب – المترجم في موقف اجتماعي – بالتذكّر المستمر للمعاد، قال تعالى: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (العنكبوت: ٦)، لما له (التذكّر) من قدرة على دفعنا لتنمية قدراتنا الإيمانية وتطوير وسائلنا الاجتماعية وإيجاد فاعليتها الحضارية.

لهذا كان بين الإيمان بالله والإيمان بالنبي والإيمان بالحشر والتصديق بوجود الكائنات تلازماً قطعياً، وارتباطاً تاماً، للتلازم في نفس الأمر، بين وجوب الألوهية وثبوت الرسالة، ووجود الآخرة وشهود الكائنات بدون غفلة[2]

وتعد العبودية من أهم مظاهر ذلك الترابط؛ فهذا أكمل الخلق الرسول الكريم ﷺ عبد، وهو رسول في الوقت نفسه. فيحتاج إلى "الصلاة" من حيث

١. الخلود في الجنة، والذي يقتضي أن يكون قلبه معلّقا بالباقي.

٢. المثنوي العربي النوري ٨٦

العبودية. إذ العبودية تتوجه من الخلق إلى الخالق حتى تنال المحبوبية والرحمة، فـ"الصلاة" تفيد هذا المعنى.[1]

من منطلق ما سبق بيانه يتأكّد "أنّ النبوة في البشرية فذلكة الخير وخلاصة الكمال وأساسه. وأن الدين الحق فهرس السعادة. وأن الإيمان حُسنٌ منزّه وجمال مجرّد. وحيث إنّ حسناً ساطعاً، وفيضاً واسعاً سامياً، وحقاً ظاهراً، وكمالاً فائقاً مشاهَدٌ في هذا العالم، فبالبداهة يكون الحقُ والحقيقة في جانب النبوة، وفي يد الأنبياء عليهم السلام، وتكون الضلالة والشر والخسارة في مخالفيهم".[2]

تولّد العبودية في المؤمن اليقظة الإيمانية، والتبصّر فيما أخبر به كتاب ربه وسنة نبيّه، ولعل من أهم تلك الأوامر، الدعوة إلى الوحدة بوصفها فريضة شرعية، لقوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا﴾ (آل عمران: ١٠٣) ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ اِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَينَ أَخَوَيكُمْ﴾ (الحجرات: ١٠)، ﴿وَأنّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّة وَاحِدَة وَأَنَا رَبُّكُم فَاعْبُدون﴾ (الأنبياء: ٩٢).

١) النبوة والنظام الكوني

أ. النبوة جزء من نظام الكون

يقتضي سر ناظم الكون ضرورة النبوة للبشرية، ذلك "أنّ القدرة الإلهية التي لا تترك النمل من دون أمير، والنحل من دون يعسوب، لا تترك حتماً البشر من دون نبي، من دون شريعة".[3]

---

١. انظر الملاحق ٦٧

٢. انظر اللمعات ١٩٤

٣. انظر الكلمات ٨٤٣

وتتجاوز ذلك بانسجام النبوة مع جمال الكون الحقيقي ونظامه وتناسقه وكماله[1].

ب. دلالة الكون على النبوة

ترتبط النبوة كما مرّ معنا بالألوهية والحشر ارتباطا وثيقا فلا ترى بينها انفصاما لاستحالته، لذلك كانت الحجج على التوحيد حججا على إثبات النبوات، ذلك "أنّ المتكلّم الحي الذي يأمر وينهى بكلماته وخطاباته من وراء الغيب المحجوب وراء ستار الكون، لابد أن الحياة التي في الكون تدل دلالة قاطعة على "الحي الأزلي" سبحانه وتعالى وعلى وجوب وجوده، كما أن شعاعات الحياة الأزلية كذلك وتجلياتها تنظر وتتوجه إلى مالها ارتباطات وعلاقات معها من أركان الإيمان مثل (إرسال الرسل) و(إنزال الكتب) وتثبتهما رمزاً، ولا سيما "الرسالة المحمدية" و"الوحي القرآني". إذ يصحّ القول: إنّهما ثابتان قاطعان كقطعية ثبوت الحياة، حيث إنّهما بمثابة روح الحياة وعقلها.[2]

٢) أهمية النبوة في العبادة

يتجلى مما سلف تقريره أهمية النبوة في طريق العبودية وتحقيق العناصر الإنسانية من جهة والتعالم الإيجابي مع عناصر الكون المادية والمعنوية من جهة أخرى، وتيسيرا لوظيفة النبوّة وهب الباري رسله جميعا وعلى رأسهم النبي الختام عليهم جميعا الصلاة والسلام أكمل الصفات وأيّده بالمعجزات، وجعله خليفة وكرّمه، فوهب للسانه الحكمة وفصل الخطاب، وسلّم إلى يده الصنعة

١. انظر الشعاعات ٦٥٢

٢. الكلمات ١١٩

البارعة، وهو يحض البشرية على الاقتداء بما وهب للسانه حضاً صريحاً، فلابد أن هناك إشارة ترغّب وتحضّ على ما في يده من صنعة ومهارة.[1]

أ. النبي الخاتم عليه الصلاة والسلام شعور شعور[2] الكون

يمثّل النبي الخاتم محمد عليه الصلاة والسلام شعورا لشعور الكون ونور له، ذلك أنّ "الرسالة المحمدية مترشّحة من حسّ الكون وشعورهِ وعقلِه، فهي أصفى خلاصته، بل إنّ حياة محمد ﷺ -المادية والمعنوية- بشهادة آثارها حياة لحياة الكون، والرسالة المحمدية شعور لشعور الكون ونور له. والوحي القرآني بشهادة حقائقه الحيوية روح لحياة الكون وعقل لشعوره... أجل... أجل... أجل."[3]

ب. نعوته عليه الصلاة والسلام وصفاته في رسائل النور

ذُكر سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام في رسائل النور بنعوت وصفات كثيرة، تدلّ على عناية الأستاذ بمقصد النبوة من جهة والنبي الخاتم من جهة أخرى، فقد ذكر أنّه عليه الصلاة والسلام يمثّل منتهى الكمالات والصفات والوظائف، ومن ذلك: أنّه عليه الصلاة والسلام العامل الخاص بأمر الله.

خاتم ديوان النبوة. - شمس سماء الرسالة. - القمر المنير لشمس الرسالة. - شمس شموس النبوة. - الشخصية المعنوية النورانية. - الآية الكبرى.

من ذلك قول الأستاذ - رحمه الله -: "هو الآية الكبرى لهذا الكتاب العظيم، وهو خاتم ديوان النبوة ﷺ ".[4]

---

١. انظر الكلمات ٢٨٢

٢. يعدّ النبي الخاتم عليه الصلاة والسلام شعور العالم، أي بعبارة قريبة يعبّر عن شعور العالم في عناصره المادية والمعنوية.

٣. الكلمات ١١٩

٤. الكلمات ٢٥٤

openkanal.com

وتؤكّد تلك المعاني باقتران اسم النبي باسم الله في ألفاظ الشهادة " أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أنّ محمدا رسول الله".

ج. دلالات حضور اسم النبي في ألفاظ الشهادة

اعتبر الأستاذ أنّ كلّ كلمة في الشهادة الثانية "أشهد أنّ محمدا رسول الله" تومئ إلى كثير من القضايا المهمة إيمانيا من زاوية وظيفية صرف:

- برهان صادق حق من البراهين الحقّة للنبوة المحمدية.
- تشير إلى وظيفة من وظائف النبوة. تشير إلى مقام من المقامات المحمدية.[1]
- تشير إلى أهمية النبي عليه الصلاة والسلام في الكون إذ يمثّل نورا كليا للكون في جوانبه المادية والمعنوية، لأنّه "ما فارق نور الرسالة المحمدية الكون وغادره، مات الكون وتوفيت الكائنات، وإذا ما غاب القرآن وفارق الكون، جنّ جنونه وفقدت الكرة الأرضية صوابها، وزلزل عقلها، وظلت بلا شعور، واصطدمت بإحدى سيارات الفضاء، وقامت القيامة".[2]

وفي فلك تلك الزوايا الوظيفة المشار إليها أعلاه، ترى الأستاذ بديع الزمان يعبّر عن فرحة العالم بوجود النبي عليه الصلاة والسلام، ليس هذا فحسب، بل يعلن مباركته وتمانيه الحارة للنبي عليه الصلاة والسلام كلّ جلسة تشهّد في الصلاة يومياً وبملايين الألسنة: "السلام عليك أيّها النبي ورحمة الله وبركاته" مقدماً له ولاءه لمهمة النبوة، ومصدقاً إياه في بشراه بالسعادة الأبدية التي أتى بها، فيستقبله بامتنان بالغ وشكر عميم إزاء فتحه طريقاً سوياً إلى الحياة الباقية التي تبحث عنها البشرية

---

١. انظر اللمعات ٤٩٧

٢. الكلمات ١١٩

بعشق دفين عميق وشوق فطرى عارم وباستعداد قوي جداً، بقوله: "السلام عليك أيّها النبي" معبراً به عن زيارة معنوية له ﷺ ولقاء معه، ومرحّباً ومهنئاً إياه باسم ثلاثمائة وخمسين مليوناً بل مليارات من المؤمنين.[1]

د. النبي الأسوة الأكمل

تحقيق الأسوة يستوجب ظهور ما يمكن أن يقتدى به فيه، فأظهر ﷺ أعلى مراتب العبودية وأسماها بالعبودية العظيمة في دينه تلبيـــة لإرادة الله في ظهـــور ألوهيته بمقتضى الحكمة.[2] وتحقيق مقتضيات القـــدوة ونتائجهـــا التربويـــة والاجتماعية يفرض الإنصات إلى الرسول بشوق ورغبة وتبجيل وإعجـــاب، وبذلك يوافق العقل والحكمة المنتظرة والمطلوبة من الإقتداء.[3]

٣) حجج إثبات نبوة سيدنا محمد ﷺ

– الحرية والنبوة:

النبوة في أصل وضعها تأسيس للحرية، إذ تمثّل طريق تحرير الإنسان مـــن العناصر التي تشدّه إلى الأرض، وذلك بما يفرضه مسلك النبوة من تحرّر مـــن عناصر الشد إلى الأرض، ذلك أنّ النبوة مؤسسة للعبودية الـــتي تعـــدّ أعلـــى مقامات الحرية، ومن ثمّ كانت العبودية التي وضعت خطتها النبوة محررة للبشر من نوازعهم السلبية من جهة، وواهبة الإنسان إيجابية تسع الحياة كلّهـــا، لـــو أردنا أن نختصر الكلام لكفانا القول بأنّ النبوة باب الحرية.

---

١. الشعاعات ٦٥٧ (بتصرف)

٢. انظر الكلمات ٦٩٠

٣. انظر الكلمات ٦٩٧

obeikandl.com

ويطرح بهذا الصدد الصلة بين النبوة والحرية، فقد يذهب الخيال بالبعض فيظن أنّ النبوة تلغي الحرية؛ فهل لهذا القول سند؟

درجت عادات الناس على أنّ للحجة والبرهان صلة وثيقة بالإلزام الآيل في بعض التصوّرات إلى الإرغام الذي لا يلتئم مع الحرية، فهل في الحجج المثبتة لنبوة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ما يلغي الاختيار؟

تبنّي الموقف السابق لا يلتئم مع حكمة الله في التكليف، إذ من مقتضيات التكليف حرية الاختيار، أكّد الأستاذ ذلك المعنى في قوله: "إنّ المعجزة تأتي لإثبات دعوى النبوة عن طريق إقناع المنكرين، وليس إرغامهم على الإيمان. لذا يلزم إظهارها للذين سمعوا دعوى النبوة، بما يوصلهم إلى القناعة والاطمئنان إلى صدق النبوة. أما إظهارها في جميع الأماكن، أو إظهارها إظهاراً بديهياً بحيث يضطر الناس إلى القبول والرضوخ فهو مناف لحكمة الله الحكيم ذي الجلال، ومخالف أيضاً لسر التكليف الإلهي. ذلك لأن سر التكليف الإلهي يقتضي فتح المجال أمام العقل دون سلب الاختيار منه."[1]

وللتدليل على المسألة يختار الأستاذ أوضح الأمثلة وأبينها، وفي هذا المقام يقول: "لو كان الخالق الكريم قد ترك معجزة الانشقاق باقية لساعتين من الزمان، وأظهرها للعالم أجمع ودخلت بطون التاريخ كما يريدها الفلاسفة لكان الكفار يقولون إنّها ظاهرة فلكية معتادة. وما كانت حجة على صدق النبوة، ولا معجزة."[2]

إنّ التكليف يبقي الباب مفتوحا لحرية الاختيار وهو بدوره أكبر تفسير لقبول فكرتي الحساب فضلا عن الثواب والعقاب ومن ثمّ الجنة والنار، إنّنا لو

---

١. الكلمات ٧٠٣

٢. الكلمات ٧٠٣

قبلنا ظهور المعجزة إلى جميع الناس في العالم كله فإما إنّها كانت تبرز لهم نتيجة إشارة الرسول الأعظم ﷺ وإظهاراً لمعجزة نبوية، وعندها تصل إلى البداهة، أي يضطر الناس كلهم إلى التصديق، أي يُسلب منهم الاختيار، فيضيع سر التكليف، بينما الإيمان في أجلى صوره وأبسط دلالاته وأوضحها يحافظ على حرية العقل في الاختيار ولا يسلبها منه، ولا يبعد عن ذلك ظهور المعجزة كحادثة سماوية محضة،تجبر العقول على التصديق بها، فلا تكون لهم حرية في الاختيار، وعندها تنقطع صلتها بالرسالة المحمدية ولا تبقى لها مزيّة خاصة[1]، ذلك أنّ الحرية شرط في التكليف.

يبقى الأستاذ بهذا التحليل الباب مفتوحا للمكابرة ومن ثمّ الإنكار، إذ رغم تضافر الحجج والبيّنات والبراهين تجد من ينكر ويجحد بآيات الله في الآفاق والأنفس، فكان تكثير الحجج على النبوة غلقا لباب الاعتذار يوم القيامة، إذ إننا نرى في رسائل النور حججا لا حصر لها عددا ونوعا، ومن ذلك ما نعرضه في الفقرة اللاحقة.

أ- القرآن الكريم حجته

- مقصد النبوة في القرآن الكريم:

القرآن الكريم رأس حجج إثبات النبوة إذ يمثّل بحر المعجزات وهو نفسه المعجزة الكبرى، يثبت نبوة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام يقيم حججاً ويسوق براهين ويبرز أدلة تغني عن كل برهان آخر.[2]

ترى تلك الحجج والأدلة في مجمل سور القرآن الكريم، حوته السور الطويلة

---

١. الكلمات ٧٠٥

٢. انظر الكلمات ٢٦٤

والقصيرة على حد سواء، كأن كل سورة على حدة تمثّل القرآن الكريم، فلا تكتفي السورة بمقصد النبوة فقط، بل كثيرا ما يذكر معه المقصد والمقصدين[1]

– التوحيد في القرآن الكريم ودلالته على النبوة:

يعلّمنا القرآن الكريم وفق مسلك النورسي في التعامل مع كتاب الله النظر إلى الكون بعناصره المادية والمعنوية، تأسيسا لنظرة إيمانية يسميها الأستاذ التفكّر الإيماني، إذ يستفاد بذلك التفكّر "شهادة الكائنات بغاياتها وبالمقاصد الإلهية فيها على الرسالة المحمدية الجامعة؛ بسبب توقّف حصول غايات الكائنات والمقاصد الإلهية منها وتقرر قيمتها ووظائفها وتبارز حسنها وكمالها وتحقق حكم حقائقها على الرسالة الإنسانية لاسيما على الرسالة المحمدية؛ إذ هي المظهرة والمدار الأتمّ لها، ولولاها لصارت هذه الكائنات المكملة والكتاب الكبير ذو المعاني السرمدية هباءً منثوراً متطايرة المعاني متساقطة الكمالات وهو محال من وجوه وجهات.[2]

– قصص الأنبياء حجج إضافية لإثبات النبوة:

يذكر القرآن الكريم قصص الأنبياء بأشكال متنوّعة لحكم كثيرة منها إثبات الرسالة المحمدية وذلك بإظهار نبوة الأنبياء جميعهم حجةً على أحقية الرسالة المحمدية وصدقها؛ حيث لا يمكن أن ينكرها إلاّ من ينكر نبوتهم جميعاً. فذكر قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام دليل على الرسالة.[3]

---

١. انظر الكلمات ٥٣٣، الشعاعات ٣١٠

٢. انظر الشعاعات ٦٦٥

٣. انظر الكلمات ٥٥٣

– احتفاء القرآن الكريم بسيدنا محمد ﷺ:

منح الرسول الكريم ﷺ أعظم مقام وأسماه في القرآن الكريم، وجعل "محمد رسول الله" – الذي يتضمن أربعة من أركان الإيمان – مقروناً بـ"لا اله الاّ الله" دليل –وأيّ دليل– على أن الرسالة المحمدية هي اكبر حقيقة في الكون، وان محمداً ﷺ لهو اشرف المخلوقات طراً. وان الحقيقة المحمدية التي تمثل الشخصية المعنوية الكلية والمقام السامى والمرتبة الرفيعة لمحمد ﷺ هي السراج المنير للعالمين كليهما، وانه ﷺ أهل لهذا المقام الخارق، كما قد اثبت ذلك في أجزاء رسائل النور بحجج وبراهين عديدة إثباتا قاطعاً.[1]

القرآن الكريم الحجة الرئيسة للنبوة الخاتمة، نبوة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، وحجة خاتم النبوة لا تكون إلاّ خاتمة الحجج، بحيث لا تكون حجة بعدها لانقطاع الوحي، لهذا تضمّنت الحجة الخاتمة "القرآن الكريم المعجزات الباهرة، وتناول كل أنواع التفكير والتشريع؛ فيكون من العسير على إنسان واحد أن يحكم في هذه المواضيع كلّها، وهل من مناص للمرء من الانجذاب إلى معجزة القرآن بعد تمعنه في أميّة نبي الإسلام ووقوفه على أسرار حياة الرسولﷺ .. فقد جعل الله تعالى معجزة القرآن وأمية محمدﷺ برهاناً على صدق النبوة وصحة انتساب القرآن له.[2]

وتوسعة لدائرة المتلقّين يستشهد القرآن الكريم بحجج عقلية تفيد الموالف (الموافق) والمخالف على حد سواء، وقد استدل بهذا النمط من الدليل قطعا للدور المتصوّر من الدليل النقلي الصرف للزوم الدور على رأي الأستاذ بديع الزمان النورسي.[3]

---

١. انظر الشعاعات ٣١٣

٢. انظر إشارات الإعجاز ٢٧١

٣. انظر إشارات الإعجاز ١٩٤

obeikandl.com

ب. دلالة الأسماء الحسنى على النبي

إرسال الرسل وإنـــزال الكتب تجل أكمل للأسماء الحسنى، يشير إلى ذلك المعنى قول بديع الزمان: "نعم! فما دام الكون قد خُلق لأجل الحياة وان الحياة هي اعظم تجلٍ وأكمل نقش وأجمل صنعة "للحي القيوم" جلّ جلاله، وما دامت حياته السرمدية الخالدة تظهر وتكشف عن نفسها بإرسال الرسل وإنـــزال الكتب، إذ لو لم يكن هناك "رسل" ولا "كتب" لما عُرفت تلك الحياة الأزلية، فكما أنّ تكلم الفرد يبين حيويته وحياته كذلك الأنبياء والرسل عليهم السلام والكتب المنـــزلة عليهم ، يبيّنون ويدلّون على ذلك المتكلم الحي الذي يأمر وينهي بكلماته وخطاباته من وراء الغيب المحجوب وراء ستار الكون. فلابد أنّ الحياة التي في الكون كما أنّها تدلّ – بصورة قاطعة – على "الحي الأزلي" سبحانه وتعالى وعلى وجوب وجوده، تدل كذلك على شعاعات تلك الحياة الأزلية وتجلياتها وارتباطاتها وعلاقاتها باركان الإيمان مثل (إرسال الرسل) و(إنـــزال الكتب) وتثبتهما رمزاً. ولا سيما "الرســـالة المحمدية" و"الوحي القرآني". إذ يصح القول، انهما ثابتان قاطعان كقطعية ثبوت تلك الحياة، حيث انهما بمثابة روح الحياة وعقلها.[1]

ووظّف الأستاذ الاستدلال بالأسماء الحسنى على النبوة في كثير من مواضع منها – إضافة إلى ما سلف– أنّه اعتبر أنّ الرسالة المحمدية تمثّل مقتضى التجلي لاسم "الحكم والحكيم" في أوسع مداه ، ليس هذا فحسب، بـــل إنّ أغلـــب الأسماء الحسنى؛ "الله، الرحمن، الرحيم، الودود، المنعم، الكريم، الجميل، الرب" وأمثالها، تستلزم الرسالة المحمدية في أعظم تجلّياتها وإحاطتها بـــالكون كلـــه،

---

١. اللمعات ٥٦٧

استلزاماً قاطعاً لا ريب فيه. وهكذا فأغلب الأسماء الحسنى إنّما هي برهان باهر على الرسالة المحمدية.[1]

ج. معجزاته ﷺ

القرآن الكريم المعجزة الباقية المستمرة من معجزات النبي ﷺ، ومع ذلك فقد رويت معجزاته الأخرى في كتب الحديث، وبلغت حد التواتر المعنوي لا اللفظي[2]، منها:

انشقاق القمر:

إنّ الله سبحانه وتعالى شقّ القمر المعلق في السماء والمرتبط مع الأرض بإشارة من عبده في الأرض، فأظهر معجزته هذه، إثباتاً لرسالة ذلك العبد الحبيب، حتى اصبح ﷺ كالفلقين المنيرين للقمر، فعرج إلى أوج الكمالات بجناحَي الولاية والرسالة النورانيين. حتى بلغ قاب قوسين أو أدنى واصبح فخراً لأهل السماوات كما هو فخر لأهل الأرض.[3]

الإخبار بالغيب:

إخباره عليه الصلاة والسلام بغيب الحاضر وغيب متعلّق بغيب المستقبل البشري أو بالغيب المطلق كالتعريف ببعض مسائل العقائد (الجنة النار الملائكة، عذاب القبر، ...) تؤكّد بما لا يدع مجالا للشك أنّه مبلّغ عن الله سبحانه وتعالى،

---

١. اللمعات ٥٣٧

٢. التواتر المعنوي: ما روي من طرق متعددة بألفاظ مختلفة إلاّ أنّها اتفقت في إفادة شيء واحد، كمجمل معجزات النبي ما سوى القرآن الكريم. أما ويقابله التواتر اللفظي: ما رواه جمع كثير عن جمع كثير، واتفقوا على لفظه. انظر للاستزادة كتب مصطلح الحديث.

٣. انظر الكلمات ٧٠٦

فقد رأى الرسول الكريم ﷺ بنظر النبوة الأنيس بالغيب، النافذ إلى المستقبل[1].

تعدد معجزاته عليه الصلاة والسلام:

ولو أردنا أن نتوقّف عند كل المعجزات لما كفتنا الصفحات الطوال، لهـذا نشير إليها مجملة، ذلك أنّها دلائل النبوة المحمدية لا تعد ولا تحصى، وقد ذكر قسماً منها في (الكلمة التاسعة عشرة والمكتوب التاسع عشر)، وذكر في السياق نفسه أنّ مع شهادة "معجزاته" البالغة إلى ألف، ومع شهادة "القرآن" البالغ وجوه إعجازه إلى أربعين، وفق ما أوردها في (الكلمة الخامسة والعشرين) على رسالة محمّد عليه الصلاة والسلام..[2]

ذكر الأستاذ بعضا منها على سبيل المثال لا الحصر:

– نبع الماء من أصابعه الخمس المباركة وتدفقه كما يدفق من خمس عيون وارتواء جيش كامل منه وشهادتهم له، المنقول إلينا بروايات صحيحة متواترة، فضلاً عن تكرار هذه الحادثة العجيبة مرتين وفي مواضع أخرى..

– رميه حفنة من تراب بالكف نفسها على جيش العدو المغير ودخول التراب عين كل منهم وانهزامهم أثناء هجومهم كما هو صراحة الآية الكريمة ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيتَ﴾(سورة الأنفال: ١٧)..

---

١. مثلا: أنّه بعد نحو ثلاثين أو أربعين سنة ستقع فتن عظيمة في صفوف الصحابة والتابعين، وستراق الدماء الزكية. فشاهد أنّ أبرز من فيها هم الأشخاص الثلاثة الذين سترهم تحت عباءته. فلأجل الإعلان عن تبرئة "علي" في نظر الأمة.. وتسلية "الحسين" وعزائه.. وتهنئة "الحسن" وإظهار شرفه ومكانته وعظيم نفعه للأمة برفعه فتنة كبيرة بالصلح.. وطهارة نسل "فاطمة" وشرافتهم واهليتهم بلقب أهل البيت، ذلك العنوان الشريف الرفيع.. لأجل كل ذلك ستر ﷺ أولئك الأربعة مع نفسه تحت ذلك العباء واهباً لهم ذلك العنوان المشرف: آل العباء الخمسة. انظر اللمعات ١٤٣

٢. انظر المثنوي النوري ٦٦

- تسبيح الحصى في الكف نفسه تسبيحاً واضحاً بيناً المروى بروايات صحيحة..

وأمثالها من المعجزات الباهرة التي ظهرت من يده المباركة ﷺ والمروي قسم منها في كتب السير والتاريخ بروايات متواترة قاطعة وهى تربو على المئات بل تبلغ الألف لدى أهل التحقيق من العلماء.[1]

د. النبي برهان النبوة

التحرر من قيود المكان والزمان يضفي على النظر إلى سيدنا محمد أكمل الحجج وأبيَنها على صدق نبوته، فهو كالشمس في الدلالة على نفسها[2]، فلو ركبنا سفينة كتب التاريخ والسيرة الشريفة ووصلنا إلى ساحل جزيرة عصر السعادة والنور، وبلغنا الجزيرة العربية، وحظينا بالرسول الكريم ﷺ وهو يزاول مهمة النبوّة المقدسة، سنخلص وفق ما خلص إليه العقلاء قاطبة ونعلم بيقين أنّ النبي ﷺ إنّما هو برهان باهر للتوحيد ودليل ساطع عليه بحيث نوّرَ سطح الأرض جميعاً، وأضاء وجهَي الزمان الماضي والمستقبل ومحا ظلمات الكفر والضلالة.[3]

هـ. النبي برهان التوحيد

رسالة النبي ﷺ ثابتة وقاطعة كقطعية ثبوت التوحيد نفسه؛ لأنه: لما كان التوحيد هو أعظم حقيقة في عالم الوجود، وأنّ الرسول الأعظم ﷺ هو الذي تولى تبليغه وتعليمه بجميع حقائقه، فلابد أن جميع البراهين التي تثبت التوحيد، تكون بدورها براهين لإثبات رسالته وأدلة على صدق نبوته وأحقية دعوته ﷺ،

---

١ الشعاعات ٦٥٨

٢. الشعاعات ٦٥٨

٣. الكلمات ٣٢١ (بتصرف)

فرسالته العظمى تضم ألوفاً من أمثال هذه الحقائق السامية.[1]

كما أنّه بجهوده المبذولة لبيان التوحيد ومختلف مطالب التكليف تدلّ بنفسها على نفاسة معدنه وصدق دعوته وكمال بيانه للتوحيد مقتضيات التكليف، لهذا كان حجة إضافية لتأكيد التوحيد؛ "فمَن ذا غير محمد ﷺ الذي أدىّ الأمانة على افضل وجه وبلّغ الرسالة على اجمل صورة؟."[2]

و. النبوة تجلي الأسماء الحسنى

تجلت في النبي الكريم عليه الصلاة والسلام الأبعاد الروحية و التربوية لأسماء الله الحسنى،و ذلك بتلاوة الذكر الحكيم، وقد ينبعث من تلاوته الآية الواحدة ما لا حصر له المعاني والأبعاد،؛ إذ هو ﷺ موضع تجلي الاسم الأعظم. فإذا قيل أنّ العبد الذاكر قد تعرض إلى نفحة من ظل الاسم الأعظم بفضل وراثة النبوة ونال ثواباً بها بمقدار قابليته، بقدر الفيض الإلهي على نبي آخر، فليس في قوله خلاف للحقيقة قط.[3]

والنبي عليه الصلاة والسلام هو الآية الواضحة المفصلة لجميع مراتب الأسماء الحسنى كلّها التي علّمها الله سبحانه آدم عليه السلام تعليماً مجملاً.. ذلكم الرسول الحبيب محمد ﷺ.[4]

توافق شهادات الأنبياء في الدلالة على النبوة والنبي الخاتم على الخصوص:

تعد معجزات جميع الأنبياء والرسل معجزة واحدة لتصديق دعوى رسالة

---

١. انظر اللمعات ٥٥٣

٢. اللمعات ٥٥٤

٣. الكلمات ٣٩٩

٤. الكلمات ٢٩١

سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، والذي هو فخر العالمين[1]، ويؤكّد تلك الحقيقة مكررات "قصص الأنبياء" عليهم السلام، إذ الحكمة من تكرارها إنّما هي لإثبات الرسالة المحمدية وذلك بإظهار نبوة الأنبياء جميعهم حجة على أحقية الرسالة المحمدية وصدقها؛ حيث لا يمكن أن ينكرها إلاّ من ينكر نبوتهم جميعا. فذكرها إذن دليل على الرسالة.[2]

ز. شهادة الكائنات

كمال حسن صنعة العالم لا ينكرها إلاّ مكابر، وكمالها يدل على الرسالة المحمدية دلالة قطعية؛ لأن جمال هذه المصنوعات المزيّنات يُظهر للناظر حُسنَ صنعةٍ وزينةٍ بالمشاهدة، وأنّ حسن الصنعة وزينة الصورة يدلان بالبداهة على أنّ لصانعها إرادةَ تحسينٍ وطلبَ تزيينٍ في غاية القوة. وأنّ إرادة التحسين وطلبَ التزيين يدلان بالضرورة على أنّ لصانعها محبةً علويةً لصنعته، ورغبةً قدسية لإظهار كمالاتِ صنعته. وأنّ تلك المحبة والرغبة تدلان بالقطع على أنّ الإنسان الذي هو اكمل المصنوعات وأبدعها وأجمل المخلوقات وأجمعها، هو المظهرُ الجامعُ والمدارُ البارعُ لتلك المحبة والرغبة، وهو الذي تتمركزان فيه. وأنّ الإنسان لكونه أجمع وأبدع المصنوعات فهو الثمرة الشعورية لشجرة الخلقة. أي هو لها كثمرةٍ ذات شعور. فلكونه كالثمرة، فهو ما بين أجزاء الكائنات جزء أجمع وأبعد من جميع الأجزاء. فلكونه أجمعَ وأبعدَ وذا شعور، فله نظرٌ عام وشعور كلي. فلكون نظره عاماً يرى مجموع شجرة الخلقة، ولكون شعوره كلياً يعرف مقاصد الصانع، فهو المخاطَب[3]

---

١. الكلمات ٢٩١

٢. الشعاعات ٣١٣

٣. المثنوي العربي النوري ٦٦

بالرسالة، وهذا يقتضي وجود رسـول ييسّر له الرقي في سلّم المحبّة.

ح. الدليل الأخلاقي والاجتماعي على النبي ﷺ

يمثّل رسول الله ﷺ معلّم الإنسانية الأخلاق والسعي الاجتماعي الهادف، وقد حكم أتباعه على مرّ تاريخهم الطويل –من العلماء والصالحين والأولياء، ...– حكماً ملؤه العبودية الخالصة للّه وحده، وقضوا "أنّ الغاية القصوى للإنسانية والوظيفة الأساسية للبشرية هي التخلق بالأخلاق الإلهية، أي التحلي بالسجايا السامية والخصال الحميدة –التي يأمر بها الله سبحانه– وأن يعلم الإنسانُ عجزَه فيلتجئ إلى قدرته تعالى، ويرى ضعفَه فيحتمي بقوته تعالى، ويشاهد فقره فيلوذ برحمته تعالى، وينظر إلى حاجته فيستمد من غناه تعالى، ويعرف قصوره فيستغفر ربه تعالى، ويلمس نقصه فيسبّح ويقدّس كماله تعالى".[1] وقد كان الرسول أصدق أنموذج أخلاقي واجتماعي دال على صدق دعواه.

ومن الشواهد الإضافية على الدليل الأخلاقي والاجتماعي أنّ الرسـول الأكرم ﷺ قد أبدى رأفة عظيمة تجاه أمور ومواد جزئية خاصة، ضمن مهمته النبوية العامة الشاملة.[2]

أمّا الأسس التي هي مدار النبوة فهي تظهر بأكمل وجه وأظهره فيه ﷺ، "إذ هو أستاذ أبناء البشر في سن كمال البشر، ومعدن الأخلاق العالية وداعي الصدق دلال النبوة[3] منبع الأخلاق العالية والأنموذج الأكمـل في العلاقـات الاجتماعية الإنسانية، زيادة إلى كونه عليه الصلاة والسلام مصدر العلوم العالية

---

١. الكلمات ٦٤٢

٢. اللمعات ٢٩

٣. انظر صيقل الإسلام ١٤٢

في مدرسة الكون ومعلّمهما الأوّل بدون منازع".[1]

ط. الإنسان برهان النبوة

اعتبر النورسي الإنسان دليل الحاجة للنبوة من جهة ودليل وجودها في ذات الوقت، ذلك أنّنا نشاهد النبوة المطلقة التي هي بمثابة معدن نظام البشرية المادي والمعنوي، ومركز انتظام أحوال كثير من الأنواع التي ضمّتها تحت تصرفها قوة العقل.. هذه النبوة المطلقة برهانها: رقي الإنسان على الحيوانية في ثلاث نقط:

النقطة الأولى: قوته العقلية

إدراك الإنسان وكشفه عن الترتيب في الأشياء، الناشئ من العلل المترتبة المتسلسلة في الخلقة.. وقابليته العلمية والتركيبية ومعرفته الحاصلة من تحليله مركبات بذور كمالات الإنسانية إلى بسيطات، وإرجاعها إلى أصله، وقدرته على محاكاة الطبيعة، ومساوقة نواميس الله الجارية في الكون بصنعته ومهارته، بالسر الكامن في القاعدة: (بداية الفكر نهاية العمل، نهاية الفكر بداية العمل). فالإنسان الذي هذه قابلياته، يدرك قصور نظره في صنعت، وزحمة الأوهام عليه، وافتقاره في جبلته الإنسانية.. مما يدله على حاجته الماسة إلى نبي مرشد، يحافظ على موازنة النظام المتقن في العالم.

النقطة الثانية: استعداده وآماله غير المتناهية

استعدادات الإنسان غير متناهية، وآماله ورغباته غير محصورة، وأفكاره وتصوراته غير محدودة، وقوّته الشهوية والغضبية غير محدّدة. فتراه يتأسفُ ويتأفف.. وذلك بحكم عدم تناهي تلك الآمال المغروز في استعداده، فكأن عدم

---

١. انظر صيقل الإسلام ١٤١

الرضا هذا يرمز ويشير إلى أنّ الإنسان مرشح للأبد، ومخلوق للسعادة الأبدية. كي يتمكن من تحويل استعداده غير المحصور من طور القوة إلى طور الفعل في عالم غير متناهٍ وغير محدود بحدود، وأوسع بكثير من عالمه هذا.

إنّ استعداد الإنسان مسدّد نحو الأبد. فإن شئت فتأمل في جوهر الإنسانية، وقيمة ناطقيته، ومقتضى استعداده، ثم انظر إلى الخيال الذي هو اصغر خادم لجوهر الإنسانية

النقطة الثالثة: اعتدال مزاج الإنسان ولطافة طبعه

اعتدال مزاج الإنسان، ولطافة طبعه، وميله إلى الزينة، أي ميله الفطري إلى العيش اللائق بالإنسانية.

لهذا يخلُص الأستاذ إلى نتيجة مفادها التمييز المطلق بين الإنسان والحيوان، ذلك أنّ الإنسان لا يعيش عيش الحيوانات، ولا يسعه ذلك فهو محتاج لتحصيل حاجاته في مأكله وملبسه ومسكنه إلى تلطيفها وإتقانها بصنائع جمة، لا يقتدر هو بانفراده عليها كلها، ولهذا احتاج إلى الامتزاج مع أبناء جنسه، ليتشاركوا فيتعاونوا، ثم يتبادلوا ثمرات سعيهم.

ولكن لتجاوز قوى الإنسانية على الآخرين – بسر عدم التحديد– تحتاج الجماعة إلى العدالة في تبادل ثمرات السعي.. ثم لأن عقل كل واحد لا يكفي في درك العدالة، لذلك وغيره:

احتاج النوع إلى وضع قوانين كلية.. ثم لمحافظة تأثيرها ودوامها، لابد من مقنن يجريها.. ثم لإدامة حاكمية ذلك المقنن في الظاهر والباطن يحتاج إلى امتياز وتفوق – مادة ومعنىً – ويحتاج أيضاً إلى دليل على قوة المناسبة بينه وبين مالك الملك صاحب العالم .. ثم لتأسيس إطاعة الأوامر وتأمين اجتناب النواهي يحتاج إلى

إدامة تصور عظمة الصانع وصاحب الملك في الأذهان.. ثم لإدامة التصور ورسوخ العقائد يحتاج إلى مذكّر مكرِر وعمل متجدد، وما المذكّر المكـــرّر إلاّ العبـــادة... وهذه العبادة توجه الأفكار إلى الصـــانع الحكيم، وهذا التوجه يؤسس الانقيـــاد. والانقياد هو للإيصال إلى النظام الأكمل والارتباط به. وهذا النظام الأكمل يتولد من سر الحكمة، وسر الحكمة يشهد عليها إتقان الصنع وعدم العبثية.

وإذا علمت هذه الجهات الثلاث من تمايز الإنسان عن ســـائر الحيوانـــات خلصت بالضرورة النتيجة البيّنة الآتية: إنّ النبوة المطلقة في نوع البشر قطب بـــل مركز ومحور تدور عليه أحوال البشر. ينتقل بعدها الأستاذ إلى بيان مـــسوّغات القول بتلك النتيجة، فيجيل نظره وينصح بتدقيق النظر في النقاط الآتية:

– **دقق النظر في الجهة الأولى:** الإنسان في أشد الحاجة إلى المعلّم المرشـــد، ذلك أنّه سيحل مشاكل الميل الطبيعي للإنسان وسوق إنسانيته، وقصر نظـــره، واختلاط الأوهام في طريق عقله، وذلك المرشد هو النبي ﷺ.

– **تدبر في الجهة الثانية:** عدم تناهي ميول وآمال الإنسان لا يسعها قانون البشر الذي لا ينطبق على قامة استعداده النامية كثمرة لميله إلى الترقي الذي هو غصن من شجرة ميل الاستكمال في العالم.

فعدم كفاية هذا القانون البشرى الحاصل نتيجة تلاحق الأفكار والتجارب التدريجية، لإنماء بذور ثمرة استعدادات الإنسان، احتاج إلى شريعة إلهية حية خالدة تحقق له سعادة الدارين معاً مادةً ومعنىً، وتتوسع حسب قامة استعداداته ونموها... فالذي أتى بالشريعة هو النبي ﷺ.

– **تفكّر أيضا في الجهة الثالثة:** الحاجة إلى تعديل الأخلاق وحمايتها مـــن الإفراط أو التفريط لا ينكرها إلا مكابر، وملكة تعديل الأخلاق الموهومـــة لا تكفي للمحافظة على القوى الثلاثة في الحكمة والعفة والشجاعة، لهذا كـــان

الإنسان وسيبقى بالضرورة محتاجا إلى نبي يمسك بميزان العدالة الإلهية النافذة والمؤثرة في الوجدان والطبائع.[1]

ي. شريعته الخاتمة

شريعة خاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ هي خاتمة الشرائع لهذا كانت شريعته ناطقة بنبوته؛ فكانت شريعته العظمى كافية ووافية لكل قوم في كل عصر[2]، وتؤصّل لمصالح الناس في العاجل والآجل (الدنيا والآخرة)، وتقرر أنّ القوة في الحق وليس الحق في القوة، فتقطع بهذا دابر الظلم وتحقق العدل.[3]

٤) مسالك إثبات النبوة عند بديع الزمان النورسي

زيادة إلى ما سلف من حجج موزّعة على رسائل النور، فقد ذكر الأستاذ جملة من براهين إثبات النبوة، يمكن أن نختصرها في فرشة ثم نلحق بها بيان مسالكه في إثباتها.

يسجّل في البداية أنّ النبي عليه الصلاة والسلام لم يكن مترددا في أي حركة من حركاته، لهذا لم يبال باعتراضات المعترضين، ولم يسجّل عنه خوف من المخالفين، وفي ذلك أكبر شاهد على صدقه وجديته، ومما زاد تلك الحجج قوّة ورصانة إصابته روح الحقيقة في أوامره، وهذا يدل على أنّه على الحق المبين.

حصر الأستاذ مسالك إثبات النبوة في مسالك خمسة أربعة منها واضحة والخامسة مخفية، وهي كالآتي:

---

١. صيقل الإسلام ١٣٦-١٣٩(بتصرف)

٢. انظر الكلمات ٥٦٨

٣. الكلمات ٦٤٣

أ. المسلك الأوّل في إثبات النبوة: تظهر من معرفة ذاته وصفاته

إنّ النبي عليه الصلاة والسلام كان على الفطرة في تخلّقه و لم يكن متصنّعا، إذ لو كان كذلك لأومأت فلتات هيئته العامة إلى التصنّع والتكلّف، كما أنّ الأخلاق العالية إنّما تتّصل بأرض الحقيقة بـــ"الجدية"، وهي إدامتها محتاجة إلى انتظام مجموعها، ولا طريق لتثبيته بغير "الصدق". ومتى ما انقطعت عرى الصدق والجدية منها صارت كهشيم تذروه الرياح. وقد تحقق له ذلك أنّه ربط ميله بما طلبه الشارع الحكيم، تدل على ذلك آثار محمد ﷺ وسيرته المباركة وتاريخ حياته تشهد – مع تسليم أعدائه – بأنّه لعلى خلق عظيم، وأنّه قد اجتمعت فيه الخصال العالية كافة. ومن شأن امتزاج كثرة من تلك الأخلاق وتجمّعها وإحاطتها، توليد عزة النفس، التي تولد شرفاً ووقاراً يترفعان عن ســـفساف الأمور، كترفع الملائكة وتنـــزههم عن الاختلاط بالشياطين، فالأخلاق السامية كذلك لا تسمح أصلاً بتداخل الحيلة والكذب بينها، بل تتنـــزّه وتتبرأ وتترفع عنها، بحكمة التضاد فيما بينها، فكان بحق حكم التخلّق بالمعالي حكما للكل وحكمًا لكلٍ في ذات الوقت، فلا ترى في أخلاقه ما يعزب عن الكمال بقدر أنملة.

ب. المسلك الثاني: تاريخ النبي عليه الصلاة والسلام أكبر شاهد على نبوته

مراجعة صحيفة ماضيه عليه الصلاة والسلام برهان على نبوته، يشهد لهذا البرهان أنّ من يأخذ أساسات علم وفن – أو في القصص – ويعرف روحـــه والعقد الحياتية فيه ويحسن استعمالها في مواضعها ثم يبني مدّعاه عليها، فان ذلك يدل على مهارته وحذاقته في ذلك العلم. كما أنّك لو كنت عارفـــاً بطبيعـــة البشر، لا ترى أحداً يتجاسر بسهولة على مخالفةٍ وكذبٍ ولو حقيراً، في قـــوم ولو قليلين، في دعوىً ولو حقيرة، بحيثية ولو ضعيفة. فكيف بمن له حيثيـــة في

غاية العظمة، وله دعوى في غاية الجلالة، ويعيش بين قوم في غاية الكثرة، ويقابله عناد في غاية الشدة، ومع أنّه أمّي لا يقرأ ولا يكتب، إلاّ أنّه يبحث في أمور لا يستقل فيها العقل وحده، ويظهرها بكمال الجدية، ويعلنها على رؤوس الأشهاد.. أفلا يدل هذا على صدقه؟

كل ما نقل عنه عليه والصلاة والسلام من علوم معارف كانت أبعد عن البادية التي سكن بها وترعرع، وهي حجة إضافية على صدقه، يشهد لها أيضا أنّه لو ناظر أميّ علماء علم، ثم بيّن رأيه في مسائله مصدقاً في مظان الاتفاق، ومصححاً في مطارح الاختلاف، يدلك ذلك على تفوقه، وأنّ علمه منحة ربانية علم وهبي لا كسبي ناله بطريق التحصيل.

تدل تلك الشواهد الجزئية على أنّ الرسول الكريم ﷺ مع أمّيته، كأنّه بالروح الجوالة الطليقة طوى الزمان والمكان، فدخل في أعماق الماضي، وبيّن كالمشاهد لأحوال الأنبياء عليهم السلام، وشرح أسرارهم على رؤوس العالم، في دعوى عظيمة تجلب إليها أنظار الأذكياء. وقد قص قصصهم بلا مبالاة ولا تردد وفي غاية الثقة والاطمئنان، وأخذ العقد الحياتية فيها وأساساتها، مقدمة لمدّعاه مصدقاً فيما اتفقت عليه الكتب السالفة ومصححاً فيما اختلفت فيه. فثبت أنّ حاله هذه دليل على نبوته.

إنّ مجموع دلائل نبوة الأنبياء عليهم السلام، دليل على صدقه ﷺ، وجميع معجزاتهم معجزة معنوية له.

ج. المسلك الثالث: بيان الحال الحاضرة وشهادتها على النبوة

يشهد عصر النبوة على صدق سيدنا محمد ﷺ في التبليغ عن ربّه من أربعة وجوه، اختصرها فيما يأتي:

– الأمر الخارق أنّك تراه عليه الصلاة والسلام رفع ما تعذّر على الملوك

obeikandl.com

والسلاطين رفعه من عادات حقيرة راسخة، كما تراه ينتزع ما فشلوا في استئصاله من خصال، بهمة ولو شديدة، في زمان قصير لا يسع أضعافه أصحاب الجاه والسلطان،

فقد أرسى عليه الصلاة والسلام فجأة بدل سيّئ العادات والأخلاق، عادات وأخلاق تكمّلت دفعة في قلوب قوم في غاية الكثرة ولمألوفاتهم في نهاية التعصب، أفلا يدل ذلك صراحة على أنّ فعله كان خارقا بالفعل؟ فإن لم تصدق بهذا فسأورد اسمك في قائمة السوفسطائيين.

– شكّل محمد ﷺ حكومة عظيمة، في زمان قصير، دولة غلبت الدول العظمى دفعة، ونشأت بشكل لافت للنظر مخالف لما درج عليه البشر من نمو تدريجي للدول، دولة يحكمها سلطان له سطوة وهيبة ظاهراً وباطناً ومادةً ومعنىً. فإن لم تستطع رؤية هذه الأمور الخارقة، فأنت في طائفة العميان.

– حكمُ الناس بالقوة والقهر متاح وممكن، ولكن أن تكون الغلبة على الأفكار والتأثير بإلقاء حلاوته في الأرواح والتسلط على الطبائع مع محافظة حاكميته على الوجدان دائماً لا يكون إلاّ من خوارق العادات. وليس إلاّ الخاصة الممتازة للنبوة. فان لم تعرف هذه الحقيقة فأنت غريب عنها.

– نفذ محمد ﷺ إلى أعماق القلوب بإرشاده، وهيّج دقائق الحسيات، وكشف أكمام الاستعدادات، وأيقظ السجايا الكامنة، وأظهر الخصال المستورة، وجعل جوهر إنسانيتهم فوارة، وأبرز قيمة ناطقيتهم، لأنّه مقتبس من شعاع الحقيقة ومن الخوارق للعادة.

د. المسلك الرابع: مسألة الشريعة التي تمثّل صحيفة المستقبل

تمثّل الشريعة صحيفة المستقبل، لهذا يتعيّن علينا إظهار صحتها حجتها باقتضاب من وجوه أربعة:

– إنّ شخصاً لا يكون متخصصاً، وصاحب مَلَكة، في أربعة علوم أو خمسة منها، إلاّ إذا كان خارقاً.

– الرسول كان إنساناً وحيداً لا خبرة سابقة له في أمور الأنظمة والمجتمع، و لم تعنه أحوال زمانه وبيئته، الاّ انه أسس نظاماً، وأرسى عدالة، تلك هي الشريعة، التي هي كخلاصة جميع قوانين العلوم وكأنها حصيلة تجارب كثيرة، بل لا يبلغ إدراكها الذكاء مهما توسع، تلك الشريعة متوجهة إلى الأزل، معلنة أنها آتية من الكلام الأزلي، ومحققة سعادة الدارين. فإن أنصفت تجد أن هذا ليس في طوق بشر، في ذلك الزمان، بل خارج عن طوق النوع البشري قاطبة. الاّ إذا أفسدت اوهامٌ سيئة بالتغلغل في الماديات طرف فطرتك المتوجهة نحو هذه الحقائق.

– إنّ الإرشاد إنّما يكون نافعاً إذا كان على درجة استعداد أفكار الجمهور الأكثر، والجمهور باعتبار الكثرة الكاثرة منه عوام والعوام لا يقتدرون على رؤية الحقيقة عريانة، ولا يستأنسون بها إلاّ بلباس خيالهم المألوف. فلهذا صوّرت الشريعة تلك الحقائق بمتشابهات وتشبيهات فأبهمت وأطلقت في مسائل العلوم الكونية، التي يعتقد الجمهور بالحس الظاهري خلاف الواقع ضرورياً. وذلك لعدم انعقاد المبادي والوسائط.. ولكن مع ذلك أومأت إلى الحقيقة بنصب أمارات.

وانتهى الأستاذ بعد عرض طويل لبراهين النبوة إلى أنّ الصدق يلمع في كل فعل وكل حال من أفعاله وأحواله ﷺ. إلاّ أنّ هذا لا يلزم أن تكون كلّ أفعاله وأحواله خارقة، لأن إظهار الخوارق والمعجزات لتصديق المدّعى إن لم تكن حاجة إليه، يكون الانقياد لقوانين عادات الله بالانسياق للنواميس الجارية العامة.

إنّ الديانة والشريعة الإسلامية المؤسسة على البرهان ملخصة من علوم وفنون تضمنت العقد الحياتية في جميع العلوم الأساسية، منها: فن تهذيب

الروح، وعلم رياضة القلب، وعلم تربية الوجدان، وفن تدبير الجسد، وعلم إدارة المنـــزل، وفن سياسة المدنية، وعلم أنظمة العالم، وفن الحقوق، وعلم المعاملات، وفن الآداب الاجتماعية، وكذا وكذا...

فالشريعة فسّرت وأوضحت في مواقع اللزوم ومظان الاحتياج، وفيمـــا لا يلزم أو لم تستعد له الأذهان أو لم يساعد له الزمان، أجملتْ بخلاصة ووضعت أساسا، أحالت الاستنباط منه وتفريعه ونشوء نمائه على مشورة العقول. والحال لا يوجد في شخص كل هذه العلوم، ولا ثلثها بعد ثلاثة عـــشر عـــصراً، في المواقع المتمدنة، ولا في الأذكياء.

ويخلص بعد تلك الجولة العقلية إلى أنّ "من زيّن وجدانه بالإنصاف يصدق بأنّ حقيقة هذه الشريعة خارجة عن طاقة البشر دائماً ولاسيما في ذلك الزمان"

هـ. المسلك الخامس: إثبات النبوة بالمعجزات الظاهرة والخوارق المعروفة

العمدة في إثبات هذا المسلك كتب السيرة والتاريخ فإنّها مشحونة بهـــا... إنّ الخوارق الظاهرة وإن كان كل فرد منها غير متواتر، ولكن جنسها، وكثيراً من أنواعها متواتر بالمعنى.

الخوارق والمعجزات على تنوّعها متفقة النتيجة متناغمة في خدمة إثبات النبوة.

– الإرهاصات المتنوعة وكأن ذلك العصر الذي ولـــد فيـــه ﷺ اســـتفاد واستفاض منه فصار حساساً ذا كرامة فبشّر بالارهاصات، بقدوم فخر العـــالم بحس قبل الوقوع.

– الإخبارات الغيبية الكثيرة حتى لكأنّ روحه المجرد الطيّار ﷺ مزّق قيد الزمان المعين والمكان المشخص فجال في جوانب الماضي والمستقبل، فقال لنا ما شاهده في كل ناحية منهما وبينه لنا.

– الخوارق الحسية التي أظهرها وقت التحدي والدعوى وقد بلغ هذا النوع إلى ما يقرب الألف. بمعنى أن مجموع هذا النوع متواتر بالمعنى وإن كان أفراده آحادياً.

– نبعان الماء من أصابعه المباركة، وكأنه يصور تصويراً حسياً فورانَ زلال الهداية الباعث للأرواح من لسانه الذي هو منبع الهداية بنبعان الماء الباعث على الحياة من يده المباركة التي هي معدن السخاء.

– تكلم الشجر والحجر والحيوان، وكأن الحياة المعنوية في هدايته ﷺ قد سرت إلى الجمادات والحيوانات فأنطقتها.

– انشقاق القمر. وكأن القمر الذي يمثل قلب السماء قد انشق اشتياقاً إليه بإشارة من إصبعه المبارك علّه يجد علاقة مع قلبه الشريف ﷺ.

وأعظم هذه المعجزات وأكبرها وأولاها هو القران الكريم المبرهن إعجازه بجهات كثيرة.

المتأمّل في المسالك الخمسة، بفكر واسع ونظر حاد وبصيرة ذات موازنة وحيدة تامة. ينتهي إلى القول: إنّ محمدا ﷺ هو الدليل الواضح على وجود الإله الذي ندعوا إليه.[1]

٥) مميزات النبوة الخاتمة

أ. التناغم مع سائر النبوات من جهة إلهية المصدر

أجمع الأنبياء عليهم السلام واتّفقوا على الحقائق الإيمانية نفسها، وهو بنفسه دليل قاطع على وجود الله سبحانه وعلى وحدانيته، وهو إضافة إلى ما سلف شهادة صادقة على صدق هذا النبي ﷺ وعلى رسالته، ذلك لأن كل ما يدل على

١. انظر صيقل الإسلام ١٤٢–١٥٨، وانظر إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز ١٦٥–١٩٠

صدق نبوة أولئك الأنبياء عليهم السلام، وكل ما هو مدارٌ لنبوتهم من الصفات القدسية، والمعجزات، والمهام التي اضطلعوا بها توجد مثلها وبأكمل منها فيه ﷺ، كما هو مصدّقٌ تاريخاً. فأولئك الأنبياء عليهم السلام قد اخبروا بلسان المقال -أي بالتوراة والإنجيل والزبور والصحف التي بين أيديهم- بمجيء هذه الذات المباركة وبشروا الناس بقدومه ﷺ (حتى أنّ أكثر من عشرين إشارة واضحة ظاهرة من الإشارات المبشرة لتلك الكتب المقدسة قد بُينت بياناً جلياً وأثبتت في رسالة المعجزات المحمدية) فكما أنّهم قد بشروا بمجيئه ﷺ فإنّهم يصدّقونه ﷺ بلسان حالهم -أي بنبوتهم وبمعجزاتهم- ويختمون بالتأييد على صدق دعوته إذ هو السابق الأكمل في مهمة النبوة والدعوة إلى الله، إنّهم مثلما يدلّون -أولئك الأنبياء- بلسان المقال وبالإجماع على الوحدانية، فإنّهم يشهدون - بلسان الحال وبالاتفاق كذلك - على صدق هذا النبي الكريم ﷺ.[1]

ب. إنسانية الغاية والمقصد

تظهر إنسانية المسعى من مضامين الرسالة ومقاصدها، فتظهر في وظيفة التبليغ والتبشير المؤسس على بيان دورها في الإفهام وصناعة الفطنة الإيمانية وما تقتضيه من عملية تربوية تسع كل مجالات الحياة.

- التبشير والتبليغ:

كلّف الله النبيّ بالتبليغ وأمره بالتبشير تأميناً لامتثال التكليف الذي فيه مشقة وترك للّذائذ الدنيوية. فكمّا أنّه مأمور بالإنذار؛ كذلك مأمور بالتبشير برضاء الله تعالى وتلطيفه وقربيته وبالسعادة الأبدية.[2] والإنسان هو وموضوع

---

١. انظر الشعاعات ١٦٩

٢. إشارات الإعجاز ١٩٧، انظر الشعاعات ١٦٨

التبليغ والتبشير والإنذار، فهو عليه الصلاة والسلام وسائر الأنبياء لأجل الإنسان بعثوا، بغرض التأسيس لمستوى الإنسانية المؤمنة مركزها ومحرّكها العبودية لله تعالى.

– دور النبوة في الإفهام عن الله:

بعث الله الأنبياء بغرض تفهيم الإنسان وظيفته ودوره في الكون، ذلك أنّ إفهام جمهور المخاطبين طريق ضروري وأساسي لنيل المقصد الأصلي للشارع الحكيم من إرشاد الجمهور محصور في إثبات الصانع الواحد والنبوة والحشر والعدالة.[1] فالنبوة رتبة تفهيم وتعليم وفق ما ينسجم والجمهور العريض من المخاطبين، ولكنّها في ذات الوقت لا تهمل الاستجابة لدقيق ما يحتاجه الخاصة وحتى خاصة الخاصة.

– الوظيفة التربوية للنبوة:

من مقتضيات التفهيم والتعليم التربية الشاملة، تلك المهمة التي تعد من مشمولات وظيفة النبوة، فكانت بالفعل ميزة مهمّة من ميزاتها، وقد ضرب النبي الخاتم عليه الصلاة والسلام أروع أمثلة التربية القاصدة، فمنها ما أظهرته تلك الموازين التربوية من آثار عظيمة على أقرب الناس إليه، إذ كانت حصة كل من الصديق والفاروق رضي الله عنهما عظيمة، وكان التوفيق حليفهما في زمن خلافتهما حتى صار كل واحد منهما دليلاً لدى أهل السنة والجماعة، [2] وذلك بفضل التربية النبوية.

---

١. انظر صيقل الإسلام ١٥٥

٢. انظر اللمعات ٣٦

– النبوة عالمية التوجّه وهي قطب مصالح الإنسانية:

حضور الإنسان كهدف في النبوة أكبر من أن يتوقّف عنده طويلا،إذ نقل عن نبينا الأعظم ﷺ- فخر العالم- "لولاك لولاك لما خلقت الأفلاك، فهدفها خدمة الإنسان بكل معاني الخدمة، فتوجّهه إلى سعادة الدار الخالدة الدار الآخرة الأبدية.[1] وأرشد الأنبياء وعلى رأسهم النبي الخاتم – عليهم جميعا أزكى الصلاة والسلام – إلى حقوق الله وحقوق العباد وضربوا أروع الأمثلة في ترك منافعهم الشخصية لأجل دعوتهم[2]، مما دفع العقلاء إلى اكتشاف البعد الإنساني في النبوات ورسالات الأنبياء عليهم والسلام

ج. التناغم مع الكون

النبوة جزء من نظام الكون لأنّها من خالق الكون، ذلك الكون المنظور الذي أرسل الأنبياء بوحي مسطور (مكتوب)؛ فكان بين المنظور والمسطور توافقا كلّيا، وكانت أصفى خلاصته، شهادة آثار حياة محمد ﷺ – المادية والمعنوية – التي تعدّ حياة لحياة الكون، ورسالته شعور لشعور الكون ونور له. والوحي القرآني – بشهادة حقائقه الحيوية – روح لحياة الكون وعقل لشعوره.. أجل.. أجل.. أجل.[3] لهذا إذا فارق نور الرسالة المحمدية الكون وغادره مات الكون وتوفيت الكائنات، وإذا ما غاب القرآن وفارق الكون، جَنّ جنونه وفَقَدت الكرة الأرضية صوابَها، وزال عقلُها، وظلت دون شعور، واصطدمت بإحدى سيارات الفضاء، وقامت القيامة.[4]

---

١. انظر الشعاعات ٦٥٥

٢. انظر صيقل الإسلام ١٤٠

٣. انظر اللمعات ٥٦٨

٤. اللمعات ٥٦٨

obeikandl.com

٦) المقاصد المندمجة في مقصد النبوة والرسالة وأسس الحاجة إليها

أ. المقاصد المندمجة في مقصد النبوة والرسالة

من منطلق ما سبق تقريره يظهر جليا أنّ النبوّة بوصفها مقصدا أساسيا من مقاصد الدين، تندرج فيها مجموعة من المقاصد المتداخلة فيما بينها، فتظهر فيها ومنها:

- إنّ محمداً عليه السلام نبي.
- أكمل الأنبياء.
- خاتم الأنبياء.
- مرسل لكافة الأقوام.
- شريعته ناسخة لجميع الشرائع، وجامعة لمحاسنها.[١]

وإضافة إلى ما سلف فإنّه عليه الصلاة والسلام:

- مربّي أرواح المسلمين ومرشد عقولهم ومحبوب قلوبهم.
- جعله الله مدار المقاصد الربانية.
- محور الغايات الإلهية السامية في الكون.
- سبب لرقي قيمة الموجودات وسمّوها، ومن مظاهر ذلك أنّه قال في الدقائق الأولى التي تشرّف العالم به " أمّتي.. أمّتي.."[٢]

ومن مقتضيات الاهتمام بالأمّة، طلب الاقتداء به، من ثمّ لم يكن ﷺ في جميع أفعاله خارقاً للعادة، خارجاً عن طور البشر، بل كان بشريا ليتسنّى له أن يكون أسوةً يُقتدى به، ويكون بأفعاله وأحواله وأطواره إماماً للآخرين، لذا ما كان يلجأ إلى إظهار المعجزات إلاّ بين حين وآخر، عند الحاجة، إقراراً لنبوته

---

١. انظر إشارات الإعجاز ٥٩

٢. انظر اللمعات ٣٤٤

obeikandi.com

أمام الكفار المعاندين. ولما كان الابتلاء والاختبار من مقتضيات التكليف الإلهي، فلم تعد المعجزة مُرغِمةً على التصديق – أي سواء أراد الإنسان أم لم يرد – لأن سر الامتحان وحكمة التكليف يقتضيان معاً فتح مجال الاختيار أمام العقل من دون سلب الإرادة منه. فلو ظهرت المعجزة ظهوراً بديهياً ملزماً للعقل كما هو شأن البديهيات لما بقي للعقل ثمة اختيار، ولصدَّق أبو جهل كما صدّق أبو بكر الصديق ﷺ ولانتفت الفائدة من التكليف والغاية من الامتحان، ولتساوى الفحم الخسيس مع الألماس النفيس![1]

ولا يذهب الخيال بك بعيدا فتوسّع من دائرة البشرية حتى تجعله عليه الصلاة والسلام كأحد من البشر، ذلك أنّه ورغم ذلك، فقد كان الرَّسُول الأكرم ﷺ – في المُقدمة – مستنداً إلى مئات من معجزاته الباهرة، والقرآن الكريم مستنداً إلى آياته الجازمة، ثم جميع الأنبياء عليهم السلام وهم ذوو الأرواح النيرة، وجميع الأولياء وهم أقطاب ذوي القلوب النورانية، وجميع الأصفياء وهم أرباب العقول المُنورة.. يبشرون الجن والأنس بالسعادة الأبدية وينذرون الضالين بجهنم – وهم يؤمنون بهذا ويشهدون عليه – استناداً إلى ما ذكره مراراً وتكراراً من الوعد والوعيد في جميع الكتب السماوية والصحف المُقدسة، واعتماداً على صفات الله تعالى كالقدرة والرحمة والعناية والحكمة والجلال والجمال، ووثوقاً بعزة جلاله وسلطانه ربوبيته، و قد كان ذلك مستند أهل الحقيقة في كشفياتهم ومشاهداتهم، كما كان لها كبير الأثر في اليقين بعقيدتهم.[2]

ب. أسس الحاجة إلى النبوة

يستشف مما سبق تقريره أنّ الحاجة ماسة إلى النبوة بوصفها مقصدا أساسيا

---

١. انظر المكتوبات ١١٨

٢. انظر سيرة ذاتية ٣٢٣

من مقاصد الدين، ومن ثمّ كانت الحاجة إلى المعرفة الكاملة عن الذي اختاره الله ليكون أهلا لحملها، ونقصد بهذا الصدد النبي ﷺ.

١ – التعرّف على التوحيد: النبوة معرفة بالتوحيد ذلك أنّه في أصل وضعها مسلك لتعريف الخلق بالله تعالى وتعليم البشر عبادته.

٢ – المعرفة بالنبي ﷺ: يبدأ بالإقرار بأنّه عليه الصلاة والسلام نبي مختار مصطفى، وأنه أكمل الأنبياء وخاتمهم، أرسله الله إلى الناس كافة... وهي ولاشك ليست معارف مجرّدة بل لها صلة كبيرة بالحياة الاجتماعية والفكرية والتربوية للمؤمن.

٣ – معرفة سيرته وشريعته: ورأس ذلك الإقرار بأنّ شريعته ناسخة لجميع الشرائع، وجامعة لمحاسنها، ويقتضي هذا المسلك الأخذ بما جاء به.[١] مربّي أرواح المسلمين ومرشد عقولهم ومحبوب قلوبهم، ذلك أنّ الله جعله مدار المقاصد الربانية، وهو محور الغايات الإلهية السامية في الكون.

٤ – الحاجة الإنسانية والكونية لمعرفته: جعل الله الرسول ﷺ سببا لرقي قيمة الموجودات وسمّوها، ذلك أنّ الرسالة المحمدية شمس معنوية للكون وهي التي نالت عددا من الشهادات الكلية الواسعة من رب العالمين الذي لا يهمل رعاية وتنظيم شئ مهما كان حتى جناح ذبابة وزهيرة صغيرة .[٢]

٥– التبليغ عن الله والتمرّس بالدعوة: القراءة القلبية والعقلية لتاريخ حياة الأنبياء ولاسيما النبي الخاتم –عليهم جميعا الصلاة والسلام– تؤكّد أن نيل رتبة رسول الله تتطلّب استعدادا للتضحية والفداء من أجل التبليغ، وهو ما يفرض

---

١. انظر إشارات الإعجاز ٥٩

٢. الشعاعات ٦٦٨

obeikandi.com

التحلي بالصبر المحفوف بالإخلاص التام الذي بمقدوره استبعاد مرض العصر"الأنانية" من بداية الطريق.

ثالثا: المقصد الثالث: الحشر

مربط فاعلية العبودية في طريق النبوة، الاستحضار العقلي والقلبي للمعاد، فمن فعل خيرا بإخلاص نال خيرا في الدنيا والآخرة، ومن فعل غير ذلك كان جزاؤه من جنس عمله.

قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوتِ وَإِنَّمَا تُوفّونَ أُجُورَكُم يَومَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (آل عمران ١٨٥).

يقول الشاعر:

فلو أنا إذا متنا تركنا لكان الموت راحة لكل حي

ولكنا إذا متنا بعثنا ونسأل بعده عن كل شي

تستمد العبودية لله في طريق النبوة فاعليتها في العقل والقلب- المترجم في موقف اجتماعي- بالتذكّر المستمر للمعاد، قال تعالى: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفسِهِ إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (العنكبوت: ٦)، لما له (التذكر) من قدرة على دفعنا لتنمية قدراتنا الإيمانية وتطوير وسائلنا الاجتماعية وإيجاد فاعليتها الحضارية.

تولّد العبودية في المؤمن اليقظة الإيمانية، والتبصّر فيما أخبر به كتاب ربه وسنة نبيّه، ولعل من أهم تلك الأوامر، الدعوة إلى الوحدة بوصفها فريضة شرعية، لقوله تعالى: ﴿وَاعتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا﴾(آل عمران: ١٠٣)، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَينَ أَخَوَيكُم﴾(الحجرات: ١٠)، ﴿إِنَّ

هذِهِ أُمَّتكُم أُمة وَاحِدَة وَأَنَا رَبُّكُم فَاعبُدُون﴾(الأنبياء: ٩٢). وورد في السنة: "ترى المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر".[١]

١. منزلة الإيمان بالحشر في الإسلام

أ. أهميته في العبادة:

ونظرا لما للحشر من أهمية في حياة المسلم المادية والمعنوية، كلّف جميع الأنبياء بالحثّ على النظر إليه، خاصة وهم ذوو الأرواح النيّرة وفي مقدمتهم الرسول الأكرم ﷺ، وجميع الأولياء وهم أقطاب ذوي القلوب المنورة، وجميع الصديقين وهم منابع العقول النافذة النيّرة، كل أولئك يؤمنون إيماناً راسخاً عميقاً به (الحشر) ويشهدون عليه ويبشرون البشرية بالسعادة الأبدية، وينذرون أهل الضلالة بأن مصيرهم النار، ويبشّرون أهل الهداية بأن عاقبتهم الجنة.

ب. الحشر ضرورة منطقية وعقلية كونية:

الحشر ضرورة منطقية وعقلية تفرضها العدالة الكونية، تلك التي حدّدها خالقها وقدّر موازينها، إذ ليس من الممكن تصوّر أنّ الرب الرحيم ذا القدرة المطلقة والحكمة المحيطة ألاّ يُنشئ "النشأة الأخرى"، أو يعجز عنها، وهو الذي له مُلك السموات والأرض وهنّ مطويات بيمينه من الذرات إلى المجرات ويديرها جميعاً ضمن نظام محكم وميزان دقيق... فسبحان الله عما يصفون.[٢]

والحشر حقيقة كونية لا مراء فيها لا ينكرها إلا مكابر، إذ الذي يقوم بأعمال في منتهى الإتقان والكمال والانتظام يبدّل هذه العوالم السيارة المنشورة

---

١. البخاري، الأدب ٢٧؛ مسلم، كتاب البر والصلة والأداب ٦٦.

٢. انظر الكلمات ٦٢٠

على حبل الزمان، يعقب بعضها بعضاً، كيف يشاء، في إطار يظهر منتهى الحكمة والعناية وفي منتهى القدرة والإتقان، ذلك أنّه قدير مطلق وحكيم مطلق وبصير مطلق وعليم مطلق، لا يمكن بحال من الأحوال أن تبدو منه المصادفة قطعاً، فذلكم الخالق الجليل يقول: ﴿إِنَّمَا أَمرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُون﴾(يس:٨٢) ﴿وَمَا أَمرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمحِ البَصَرِ أو هُوَ أَقرَب﴾ (النحل:٧٧).

يعلن قدرته المطلقة ويبين أنّ الحشر والقيامة بالنسبة لتلك القدرة هي في منتهى السهولة واليسر، وأنّ الأشياء كلّها مسخّرة لأوامره ومنقادة إليها كامل الانقياد، وأنّه يخلق الأشياء دون معالجة ولا مزاولة ولا مباشرة، ولأجل الإفادة عن السهولة المطلقة في إيجاد الأشياء، يقرر القرآن المبين أنّه سبحانه وتعالى يفعل ما يريد بمجرد الأمر.[1]

٢. أساليب عرض القرآن الكريم لمسألة الحشر

عرض القرآن الكريم مسألة الحشر بأساليب مختلفة، تقرر جميعها وبأدلة متضافرة أنّ إنكار الحشر مكابرة ظاهرة، من ذلك مثلا:

أ. بسط المقدّمات المنهجية لحجج قطعية

بسط القرآن الكريم مقدّمات ليؤكّد للكفار أنّ عدم قبول الحشر مكابرة، لإنكارهم إياه كما ورد في مستهل الآيات، فيقول: أفلا تنظرون إلى السماء فوقكم كيف بنيناها، بناءً مهيباً منتظماً.. أولا ترون كيف زيّناها بالنجوم وبالشمس والقمر دون نقص أو فطور..؟ أولا ترون كيف بسطنا الأرض وفرشناها لكم بالحكمة، وثبّتنا فيها الجبال لتقيها من مّد البحار واستيلائها؟ أولا

١. انظر الكلمات ٢١٦

ترون أنّا خلقنا فيها أزواجاً جميلة متنوعة من كل جنس من الخضراوات والنباتات، وزيّنا بها إرجاء الأرض كافة؟ أولا ترون كيف أُرسلُ ماءً مباركاً من السماء فأُنبتُ به البساتين والزرع والثمرات اللذيذة من تمر ونحوه واجعله رزقاً لعبادي؟ أولا يرون أنّني أحيي الأرض الميتة، بذلك الماء. وآتي ألوفاً من الحشر الدنيوي. فكما أُخرج بقدرتي هذه النباتات من هذه الأرض الميتة، كذلك خروجكم يوم الحشر، إذ تموت الأرض في القيامة وتبعثون انتم أحياء. فأين ما أظهرته الآية في إثبات الحشر من جزالة البيان – التي ما أشرنا إلا إلى واحدة من الألف منها – وأين الكلمات التي يسردها الناس لدعوى من الدعاوى؟.[1]

وهكذا يظهر جليا أنّ بسط المقدّمات في القرآن الكريم بطريقة واضحة بسيطة تهيّئ النفوس لقبول الحجج القطعية التي ساقها الله تعالى في كتابه الكريم، والخلوص بهم إلى أنّ رفض تلك النتائج القطعية يرجع إلى مرض نفسي أو فكري دفعهم إلى المكابرة.

ب. تنويع الأدلة على الحشر

إثباتا لحقيقة الحشر نوّع القرآن الكريم الأدلّة عليه، فقد جعلها مرتبة سهلة إلى درجة أنّ لها الملايين من الأمثلة في كل ربيع. إلاّ أن القرآن الكريم لأجل إثبات هذه المرتبة السهلة، يبيّن أحياناً قدرة قادرة على حشر جميع الذرات ونشرها، وأحياناً يبيّن آثار قدرة وحكمة تتمكن من إرسال المخلوقات كافة إلى الفناء و العدم ثم إعادتها من هناك.. ويبين في بعض آياته آثار وتدابير قدرة وحكمة لها من المقدرة على نثر النجوم وشق السماوات وفطرها. وتبيّن آيات أخرى تدابير قدرة وحكمة قادرة على إماتة جميع ذوي الحياة وبعثهم بصيحة

---

١. انظر الكلمات ٥٠٢

واحدة، دفعة واحدة، ويبيّن في أخرى تجلّيات قدرة وحكمة قادرة على حشر ما على الأرض من ذوي الحياة، ونشره كل على انفراد. ويبيّن أحياناً آثار قدرة وحكمة قادرة على بعثرة الأرض كلّها ونسف الجبال وتبديلها إلى صورة أجمل منها. بمعنى أنّه مما سوى مرتبة الحشر الذي هو مفروض على الجميع الإيمان به ومعرفته، فإنّ كثيراً من مراتبه يمكن أن تتحقق بتلك القدرة والحكمة. فإذا ما اقتضت الحكمة الربانية قيامها، فلابدّ أنّه سيقيمها جميعاً مع حشر الإنسان ونشره، أو سيقيم بعضاً مهماً منها.[1]

ج. ربط فاعلية الإنسان في الحياة بالإيمان بالحشر

ارتبطت فاعلية الحشر بربطه بعناصر ديمومة الحياة والحفاظ عليها، فقد جعل الشارع الانتفاع بالدنيا في اعتدال وتوسّط متناسبا بدرجة استحضار الحشر في مباشرة التعامل مع الدنيا بمكوّناتها المادية والمعنوية، وذلك بما نلحظه من "المعاني المقدسة المنبعثة من التجلي الأعظم للعدالة الكاملة والحكمة التامة في الحشر الأعظم في الدار الآخرة،" إذ يتجلى أثرها على الأحياء كافة فضلاً عن الجن والإنس.[2]

وتحقيقا لذلك المسعى يؤكّد أن الدنيا دار "الحكمة" والدار الآخرة هي دار "القدرة"، ولهذا فان إيجاد الأشياء في الدنيا صار بشيء من التدريج ومع الزمن. بمقتضى الحكمة الربانية وبموجب أغلب الأسماء الحسنى أمثال "الحكيم، المرتّب، المدبر، المربي". أما في الآخرة فإن "القدرة" و"الرحمة" تتظاهران أكثر من "الحكمة" فلا حاجة إلى المادة والمدة والزمن ولا إلى الانتظار. فالأشياء تنشأ هناك نشأة آنية. وما يشير إليه القرآن الكريم بـ ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ

---

١. انظر الكلمات ٧٣٥

٢. انظر الكلمات ٧٤٦

البَصَرِ أو هو اَقْرَبُ﴾ (النحل:٧٧)، هو أنّ ما ينشأ هنا من الأشياء في يوم واحد وفي سنة واحدة ينشأ في لمحة واحدة كلمح البصر في الآخرة.[١]

٣. تعدد أنواع أدلة إثبات الحشر

أثبت القرآن الكريم حقيقة الحشر بأدلّة متنوّعة، منها:

أ. خطاب الإنكار على المشاغب والمعاند

مخاطبة منكري الحشر بأسلوب إنكار، هدفه الإرشاد القوي إلى المطلوب، ورد ذلك عن الأستاذ في قوله: "تنكرون إذن النشأة الأخرى التي هي مثل هذا بل أهون منه؟.. ثم يشير بـ﴿الّذِى جَعَلَ لَكم مِنَ الشَّجَرِ الاَخْضَرِ نَاراً﴾ (يس:٨٠) إلى تلك الآلاء وذلك الإحسان والإنعام الذي أنعمه الحق سبحانه على الإنسان، فالذي ينعم عليكم مثل هذه النعم، لن يترككم سدى ولا عبثاً، لتدخلوا القبر وتناموا دون قيام.. ثم إنّه يقول رمزاً: إنّكم ترون إحياء واخضرار الأشجار الميّتة، فكيف تستبعدون اكتساب العظام الشبيهة بالحطب للحياة ولا تقيسون عليها؟.. ثم هل يمكن أن يعجز مَن خلق السماوات والأرض عن إحياء الإنسان وإماتته وهو ثمرة السماوات والأرض، وهل يمكن لمن يدير أمر الشجرة ويرعاها أن يهمل ثمرتها ويتركها للآخرين؟! فهل تظنون أن يُترك للعبث "شجرة الخلقة" التي عجنت جميع أجزائها بالحكمة، ويهمل ثمرتها ونتيجتها؟.. وهكذا فإنّ الذي سيحييكم في الحشر هو مَن بيده مقاليد السموات والأرض، وتخضع له الكائنات خضوع الجنود المطيعين لأمره فيسخرهم بأمر "كن فيكون" تسخيراً كاملاً.. ومَن عنده خلق الربيع يسير وهيّن كخلق زهرة

---

١. انظر الكلمات ١٢٢

واحدة، وإيجاد جميع الحيوانات سهل على قدرته كإيجاد ذبابة واحدة. فلا ولن يُسأل للتعجيز صاحب هذه القدرة: (مَنْ يُحيْيِ الْعِظَامَ)؟"[1]

ب. إثبات الحشر بأدلة النبوة

تقرير الأستاذ النورسي لحقيقة الحشر المتضمنة في أدلة إثبات نبوة سيدنا محمد ﷺ، من ذلك قوله رحمه الله: "وهكذا فإن الدلائل والحجج التي تثبت صدق القرآن الكريم بل جميع الكتب السماوية، وأنّ المعجزات والبراهين التي تثبت نبوة حبيب الله بل الأنبياء جميعهم، تثبت بدورها أهمّ ما يدعون إليه، وهو تحقق الآخرة وتدلّ عليها. كما أنّ أغلب الأدلّة والحجج الشاهدة على وجوب واجب الوجود ووحدته سبحانه، هي بدورها شاهدة على دار السعادة وعالم البقاء التي هي مدار الربوبية والألوهية وأعظم مظهر لهما، وهي شاهدة على وجود تلك الدار وانفتاح أبوابها -كما سيُبين في المقامات الآتية- لأنّ وجوده سبحانه وتعالى، وصفاته الجليلة، وأغلب أسمائه الحسنى، وشؤونه الحكيمة، وأوصافه المقدسة أمثال الربوبية والألوهية والرحمة والعناية والحكمة والعدالة تقتضي جميعها الآخرة وتلازمها، بل تستلزم وجود عالم البقاء بدرجة الوجوب وتطلب الحشر والنشور للثواب والعقاب بدرجة الضرورة أيضاً."[2]

"نعم، مادام الله موجوداً، وهو واحد، أزلي أبدي، فلابدّ أنّ محور سلطان ألوهيته وهو الآخرة، موجود أيضاً.. وما دامت الربوبية المطلقة تتجلى في هذه الكائنات ولاسيما في الأحياء وهي ذات جلال وعظمة وحكمة ورأفة ظاهرة واضحة، فلابد أنّ هناك سعادة أبدية تنفي عن الربوبية المطلقة أيّ ظن بكونها

---

١. الكلمات ١٢٤

٢. الكلمات ١١٠

تترك الخلق هملاً دون ثواب، وتبرّئ الحكمة من العبث، وتصون الرأفة من الغدر. أي أنّ تلك الدار موجودة قطعاً ولابد من الدخول فيها."[1]

وقد يعبّر الأستاذ النورسي عن الحشر في رسائل النور بأساليب أخرى منها "الدلائل التي تثبت "الإيمان بالقدر"[2]، فهي بدورها دلائل على الحشر ونشر الصحف وموازنة الأعمال عند الميزان الأكبر، ذلك لأنّ ما نراه أمام أعيننا من تدوين مقدّرات كلّ شيء على ألواح النظام والميزان، وكتابة أحداث الحياة ووقائعها لكلّ ذي حياة في قواه الحافظة، وفي حبوبه ونواه، وفي سائر الألواح المثالية. وتثبيت دفاتر الأعمال لكلّ ذي روح ولاسيما الإنسان، وإقرارها في ألواح محفوظة.. كل هذا القدر من القَدَر المحيط، ومن التقدير الحكيم، ومن التدوين الدقيق، ومن الكتابة الأمينة، لا يمكن أن يكون إلاّ لأجل محكمة كبرى، ولنيل ثواب وعقاب دائمين. وإلاّ فلا يبقى مغزى ولا فائدة أبداً، لذلك التدوين المحيط والكتابة التي تسجل وتحفظ أدقّ الأمور. فيقع إذن ما هو خلاف الحكمة والحقيقة. أي إنْ لم يحدث الحشر فإنّ جميع معاني كتاب الكون الحقة التي كتبت بقلم القَدَر سوف تمسخ وتفسد! وهذا لا يمكن أن يكون مطلقاً، وليس له احتمال أبداً، بل هو محال في محال. كإنكار هذا الكون، بل هو هذيان ليس إلاّ."[3]

ويعدّ الحشر وفق ترتيب النورسي المقصد الرابع من المقاصد المشهورة "مسألة الحشر" وقد استفادها بالإضافة إلى ما سلف من نظم القرآن الكريم لعشرة براهين.

---

١. الكلمات ١١٠

٢. انظر الكلمات، الكلمة السادسة والعشرين، رسالة القدر

٣. الكلمات ١١٤

Openkanal.com

ج. براهين القرآن الكريم على المقصد الرابع "مسألة الحشر"

من خلال النظر في قوله تعالى: ﴿وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ يؤسس النورسي لمجموعة من البراهين المستفادة من الآية الكريمة، فيصرّح رحمه الله بأنّه استفاد من نظم القرآن الكريم عشرة براهين، ذكرها في أكثر من موقع[1]

يقرر الأستاذ بديع الزمان في مطلع حديثه أنّ الحشر حق، تؤكّده مجموعة من الشواهد المتضافرة:

– إنّ في الكائنات نظاماً أكمل قصدياً.. وأنّ في الخلقة حكمة تامة.. وأنّ لا عبثية في العالم.. وأن لا إسراف في الفطرة.. والمزكّي لهؤلاء الشواهد الاستقراء التام بجميع الفنون التي كل منها شاهدُ صدق على نظام نوع موضوعه.. وأيضا إن في كثير من الأنواع مثل اليوم والسنة وغيرهما قيامة مكررة نوعية.. وأيضا جوهر استعداد البشر يرمز إلى الحشر.. وأيضا عدم تناهي آمال البشر وميوله يشير إليه.. وأيضا رحمة الصانع الحكيم تلوح به.. وأيضا لسان الرسول الصادق عليه السلام يصرّح به.. وأيضا بيان القرآن المعجز في أمثال ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً﴾، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ يشهد له. تلك عشرة كاملة، مفاتيح للسعادة الأبدية وأبواب لتلك الجنة، ينتقل بعدها إلى تفاصيل البراهين.

البرهان الأول: استصعاب فهم نظام العالم

هل يمكن فهم نظام العالم على ما هو عليه، ما لم نقر بوجود مقصد من وجوده، كما أنّ التصديق بالحشر يؤكّد سعي العالم إلى تحقيق ذلك المقصد، إذ لو لم تجر الكائنات إلى السعادة الأبدية لصار ذلك النظام الذي أتقن فيه صانعُه

١. انظر هذه البراهين في رسالة "لاسيما" من المثنوى العربى النورى، والكلمتين العاشرة والتاسعة والعشرين.

إتقاناً حَيَّرَ فيه العقول صورةً ضعيفة خادعة، وجميع المعنويات والروابط والنسب في النظام هباء منثوراً. فليس نظام ذلك النظام إلاّ اتصاله بالسعادة، أي أنّ النكت والمعنويات في ذلك النظام إنّما تتسنبل في عالم الآخرة، وإلاّ لانطفأ جميع المعنويات، وتقطّع مجموع الروابط، وتمزّق كل النسب، ويتفتت هذا النظام، مع أن القوّة المندمجة في النظام تنادي بأعلى صوتها: أن ليس من شأنها الانقضاض والانحلال.

البرهان الثاني: نظام الدنيا دليل السعادة الأبدية

تمثّل العناية الأزلية الحكمة التامة، التي هي رعاية المصالح والحِكَم في كل نوع، بل في كل جزئي – بشهادة كل الفنون – يبشر بقدوم السعادة الأبدية. وإلاّ لَزِم إنكار هذه الحكم والفوائد التي أجبرتنا البداهةُ على الإقرار بها، إذ حينئذ تكون الفائدة لا فائدة.. والحكمة غير حكمة.. والمصلحة عدم مصلحة. وإن هذا إلاّ سفسطة.

البرهان الثالث: التناغم الجمالي والتوافق في الأدوار

يشهد الفن أيضا أنّ الصانع اختار في كل شيء الطريق الأقصر، والجهة الأقرب، والصورة الأخف والأحسن. فيدلّ على أن لا عبثية. وأنّ الأمر جدّي حقيقي. وما هو إلا بمجيء السعادة الأبدية. وإلاّ لتنزل هذا الوجود منزلة العدم الصرف. وتحول كل شيء عبثاً محضاً.. سبحانك ما خلَقْتَ هذا عَبَثاً.

البرهان الرابع: التناغم بين المكوّنات في العالمين الصغير (الإنسان) والكبير (الكون) أي التساوق بين الآفاق والأنفس

يظهر فيها عدم إسراف في الفطرة بشهادة الفنون.فإنّ تقاصر ذِهْنُك عن إدراك حِكَم الإنسان الأكبر وهو "العالم" فأمعن النظر في العالم الأصغر وهو

"الإنسان". فإنّ فن منافع الأعضاء قد شرح وأثبت أنّ في جسد الإنسان تقريبا ستمائة عظم كلّ لمنفعة.. وستة آلاف عصب هي مجارٍ للدم كلّ لفائدة.. ومائة وأربعة وعشرين ألف مسامة وكوّة للحجيرات التي تعمل في كل منها خمس قوى من الجاذبة والدافعة والممسكة والمصوّرة والمولّدة كل منها لمصلحة.وإذا كان العالَمُ الأصغر كذا فكيف يكون الإنسان الأكبر أنقصَ منه؟ وإذا كان الجسد الذي لا أهمية له بالنسبة إلى لبّه بتلك الدرجة من عدم الإسراف فكيف يُتصور إهمال جوهر الروح؟ وإسرافٌ كل آثاره من المعنويات والآمال والأفكار؟ إذ لولا السعادة الأبدية لتقلّصت كل المعنويات وصارت إسرافاً. فبالله عليك أيمكن في العقل أن يكون لك جوهرة قيمتها الدنيا، فتهتم بصدَفها وغلافها حتى لا تخلي أن يصل الغبار إليه، ثمّ تأخذ الجوهرة فتكسّرها شذراً مذراً وتمحو آثارها؟ كلا ثم كلا!

قيل لك: إنّ شخص الإنسان كنوع غيره، إذ نور الفكر أعطى لآمال البشر وروحه وُسْعة وانبساطاً بدرجة وسِعَت الأزمنة الثلاثة، لو ابتلع الماضي والمستقبل مع الحال لم تمتلئ آماله، لأنّ نور الفكر صيّر ماهيته علوية، وقيمته عمومية، ونظره كلياً، وكماله غير محصور، ولذته دائمية، وألمه مستمراً. أمّا فرد النوع الآخر فماهيته جزئية، وقيمته شخصية، ونظره محدود، وكماله محصور، ولذته آنية، وألمه دفعيّ، فوجود نوع قيامة في الأنواع، كيف لا يشير بالقيامة الشخصية العمومية للإنسان؟

ما تهتم بالغلاف إلاّ لأجل ما فيه.. وأيضا إذا أفهمتك قوةُ البنية في شخص وصحة أعضائه واستعداده، استمرار بقائه وتكمله، أفلا تفهّمك الحقيقةُ الثابتة الجارية في روح الكائنات، والقوةُ الكاملة الموحية بالاستمرار في الانتظام، والكمال المنجر إلى التكمل في النظام: مجيء السعادة الأبدية من باب الحشر

الجسماني؟ إذ هي المخلصة للانتظام عـــن الاخـــتلال، والواســـطة للتكمـــل وانكشاف تلك القوة المؤبدة.

البرهان الخامس: الحدس المرمز إلى القصد

إنّ وجود نوع قيامات مكررة نوعية في كثير من الأنواع يشير إلى القيامـــة العظمى وإن شئت تمثُلَ الرمزِ في مثال، فانظر في ساعتك الأسبوعية، فكما أنّ فيها دواليب مختلفة دوارة متحرّكة محرّكة للإبر والأمْيال العادّة واحدة منـــها للثواني. وهي مقدمة ومخبرة لحركة إبرة الدقائق. وهي مُعدّة ومُعلنة لحركة ميل الساعات. وهي محصلة ومؤذنة لحركة الإبرة التي تعدّ أيام الأسبوع. فإتمام دورة السابقة يشير بأنّ أختها اللاحقة تتم دورها، كذلك إن لله تعالى ساعةً كـــبرى دواليبُها الأفلاكُ تعدّ أميالها الأيام والسنين وعمر البشر وبقاء الدنيا، نظير الثواني والدقائق والساعات والأيام في ساعتك. فمجيء الصبح بعد كل ليلة، والربيع بعد كل شتاء – بناء على حركة تلك الساعة – يشير إشارة خفية ويرمز رمزا دقيقا بتولد صبح ربيع الحشر من تلك الساعة الكبرى.

البرهان السادس: الملوّح من لا تناهي استعدادات البشر

فهو عدم تناهي استعدادات البشر. نعم إنّ تصورات البشر وأفكاره التي لا تتناهى، المتولدة من آماله غير المتناهية، الحاصلة من ميوله غير المضبوطة، الناشئة من قابلياته غير المحدودة، المستترة في استعداداته غير المحـــصورة، المزروعـــة في جوهر روحه الذي كرمه الله تعالى، كلّ منها يشير في ما وراء الحشر الجسماني بأصبع الشهادة إلى السعادة الأبدية وتمد نظرها إليه. فتأمل!

البرهان السابع: البشارة بالرحمة الأبدية والسعادة اللا متناهية

وهو أنّ رحمة الرحمن الرحيم تبشر بقدوم أعظم الرحمـــة أعـــني الـــسعادة

الأبدية، إذ بها تصير الرحمة رحمة، والنعمة نعمة. وبها تخلص الكائنات من النياحات المرتفعة من المأتم العموميّ المتولد من الفراق الأبدي المصيّر للنعم نقماً. إذ لو لم يجئ روحُ النِعَم أعني السعادة الأبدية، لتحول جميع النعم نقما، وللزم المكابرة في إنكار الرحمة الثابتة بشهادة عموم الكائنات بالبداهة وبالضرورة..

فيا أيّها الحبيب الشفيق العاشق! انظر إلى ألطف آثار رحمة الله، أعني المحبة والشفقة والعشق، ثم راجع وجدانك لكن بعد فرض تعقب الفراق الأبدي والهجران الأزلي عليها، كيف ترى الوجدان يستغيث.. والخيال يصرخ.. والروح يضجر من انقلاب تلك المحبة والشفقة – اللتين هما أحسن وألطف أنواع الرحمة والنعمة – أعظم مصيبة عليك واشد بلاء فيك؟ أفيمكن في العقل أن تساعد تلك الرحمة الضرورية لهجوم الفراق الأبدي والهجران الأزليّ على المحبة والشفقة؟ لا! بل من شأن تلك الرحمة أن تسلِّط الفراقَ الأبدي على الهجران الأزليّ، والهجران الأزلي على الفراق الأبدي و العدم عليهما.

البرهان الثامن: المصرّح بلسان النبي ﷺ

لسان محمد عليه السلام الصادق المصدوق، ولقد فتح كلامه أبواب السعادة الأبدية، على أن إجماع الأنبياء من آدمهم إلى خاتمهم عليهم السلام على هذه الحقيقة حجة حقيقية قطعية على هذا المدعى. ولأمر مّا اتفقوا على حقيقة البشر و رافعوا ودافعوا عنها.

البرهان التاسع: إعجاز القرآن الكريم شاهد على الحشر

إخبار القرآن المعجز، إذ التنزيل المصدق إعجازه بسبعة أوجه في ثلاثة عشر عصرا دعواه عين برهانها. فإخباره كشاف للحشر الجسماني ومفتاح له.

البرهان العاشر: براهين متنوّعة وكثيرة على المقصود

المشتمل على ألوف من البراهين التي تضمنها كثير من الآيات مثل ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً﴾ المشير إلى "قياس تمثيلي". و﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلاّمٍ لِلْعَبِيد﴾ المشير إلى "دليل عدليّ" وغيرهما. فلقد فتح القرآن في أكثر الآيات كُوّاتٍ ناظرة إلى الحشر.

أ. القياس التمثيلي المشار إليه بالآية الأولى:

انظر في وجود الإنسان فانه ينتقل من طور إلى طور.. من النطفة إلى العلقة.. ومنها إلى المضغة.. ومنها إلى العظم واللحم.. ومنه إلى الخلق الجديد. ولكلٍّ من تلك الأطوار قوانين مخصوصة، ونظامات معيّنة، وحركات مطّردة يشفّ كلٌّ منها عن قصدٍ وإرادةٍ واختيارٍ.. ثم تأمل في بقائه فإن هذا الوجود يجدد لباسه في كل سنة، ومن شأنه التحلل والتركب، أي انقضاض الحجيرات وتعميرها ببدل ما يتحلل من المادة اللطيفة الموزعة على نسبة مناسبة الأعضاء التي يحضرها صانعُها بقانون مخصوص. ثم تأمل في أطوار تلك المادة اللطيفة الحاملة لأرزاق الأجزاء. كيف تنتشر في أقطار البدن انتشاراً تحير فيه العقول. وكيف تنقسم بقانون التقسيم المعين على مقدار حاجات الأعضاء، بعد أن تلخصت تلك المادة بنظام ثابت، ودستور معين، وحركة عجيبة من أربع مصفاتات، وانطبخت في أربعة مطابخ بعد أربعة انقلابات عجيبة، المأخوذة تلك المادة من القوت المحصل من المواليد المنتشرة في عالم العناصر بدستور منتظم، ونظام مخصوص، وقانون معين. وكل من القوانين والنظامات في تلك الأطوار يشف عن سائقٍ وقصدٍ وحكمةٍ.

كيف لا، ولو تأمّلت من قافلة تلك المادة اللطيفة في ذرة مثلا، مستترة في عنصر الهواء تصير بالآخرة جزءاً من سواد عين "الحبيب"، لعلمت أن تلك

الذرة وهي في الهواء معيّنة كأنها موظفة مأمورة بالذهاب إلى مكانها الذي عُيّنَ لها، إذ لو نظرت إليها بنظر فنيّ تيقنت أن ليست حركتها "اتفاقية عمياء" "بتصادف أعمى"، بل تلك الذرة ما دخلت في مرتبة إلا تبعت نظاماتها المخصوصة، وما تدرجت إلى طور إلا عملت بقوانينه المعينة، وما سافرت إلى طبقة إلا وهي تساق بحركة عجيبة منتظمة. فتمر على تلك الأطوار حتى تصل إلى موضعها. مع أنها لا تنحرف قطعا مقدار ذرة عن هدف مقصدها.

ويختم مجموع تلك البراهين بذكر محصّلة الكلام فيقول رحمه الله: "والحاصل: أن من تأمل في النشأة الأولى لم يبق له تردد في النشأة الأخرى، ولقد قال النبي عليه الصلاة والسلام (عجباً لمن يرى النشأة الأولى كيف ينكر النشأة الأخرى). نعم! كما أن جمعَ نفراتِ عسكرِ فرقةٍ أُذِنَ لهم بالاستراحة والانتشار إذا دعوا بالآلة المعروفة – فيتسللون عن كل طرف ومكمن، فيجتمعون متحدين تحت لوائهم – يكون أسهل وأسهل من جلبهم أول الأمر إلى الانتظام تحت السلاح، كذلك أن جمعَ الذرات التي حصلت بينها المؤانسة والمناسبة بالامتزاج في وجودٍ واحدٍ إذا نوديتْ بصُور اسرافيل فينساب الكل من كل فج عميق ملبّية لأمر خالقها يكون أسهل وأمكن في العقل من إنشائها وتركيبها أول المرة.

أما بالنسبة إلى القدرة فأعظم الأشياء كأصغرها. ثم الظاهر أن المعاد يعاد بأجزائه الأصلية والفضولية معا. كما يشير إليه كبر أجسام أهل الحشر وكراهة قصّ الأظفار والأشعار ونحوها للجُنُب، وسنّية دفنها. والتحقيق: أن عجب الذَنَب يكفي أن يكون بذراً ومادةً لتشكله.

ب. الدليل الذي لوح به (وما ربك بظلام للعبيد):

اعلم! أنّا كثيراً ما نرى الظالم الفاجر الغدّار في غاية التنعم، ويمرّ عمُره في

غاية الطيب والراحة. ثم نرى المظلوم الفقير المتدين الحسن الخلق ينقضي عمره في غاية الزحمة والذلة والمظلومية، ثم يجئ الموتُ فيساوي بينهما. وهذه المساواة بلا نهاية تُري ظلماً. والعدالة والحكمة الإلهيتان اللتان شهدت عليهما الكائناتُ منزهتان عن الظلم، فلابد من مجمعٍ آخر ليرى الأول جزاءه والثاني ثوابه فيتجلى العدالة الإلهية. وقس على هاتين الآيتين نظائرهما.

ج. دلالة الحكمة على مقصد الحشر:

دلّ على الحشر حكمة تعدّد الغايات التي وضّحتها حاشية الحقيقة السادسة من رسالة الحشر[1] كما أنّ من أهمّ مظاهر الرحمة والحكمة أنّ توجد ديار غير هذه الديار، فيها محكمة كبرى، ودار عدالة عليا، ومقرَّ كرم عظيم، لتظهر فيها العناية والعدالة بوضوح وجلاء [2] في الآخرة والدنيا، فتكون سبب في تحرير الإنسان ممّا يقلقه وينغّص عليه حياته، بالتفكير الدائم في مصيره، وكيفية دخوله القبر، مثلما انتهى إليه مصير أحبته وأقاربه. فتوهم الإنسان المسكين – الذي يضحي بروحه لأجل صديق عزيز – وتصوّره من أن آلافا بل ملايين الملايين من إخوانه البشر ينتهون إلى العدم بالموت – ذلك الفراق الأبدي الذي لا لقاء وراءه – سيذيقه هذا التصور ألما شديدا ينبئ بآلام جهنم. وحينما يتلوى هذا الإنسان من ألم ذلك العذاب الأليم النابع من ذلك التفكير، يأتي "الإيمان بالآخرة" فاتحا بصيرته، مزيلا الغشاوة عن عينيه، قائلا له: انظر.. فينظر بنور الإيمان، فإذا به يكسب لذة روحية عميقة تنبئ بلذة الجنة، بما يشاهد من نجاة أحبته وخلاصهم جميعا من الموت النهائي والفناء والبلى والاندثار، ومن بقائهم خالدين في عالم النور الأبدي منتظرين قدومه إليهم. نقتصر على

---

١. انظر المثنوي العربي ٣٥٦

٢. انظر الكلمات ٥٧

هـــذا حيث وضحت رســـائل النور هـــذه النتيجة مـــع حججها.[1]

د. مخاطبة الوجدان في إثبات المقصد الرابع (الحشر):

الترهيب والتهديد إثباتا وتأكيدا للحشر، أي أنّ اتقاء النار يفرض أنّكم إن كنتم صادقين تفعلوا المعارضة وتأتوا بسورةٍ لكن ما تفعلون ولن تفعلوا، فأنتج فلم تكونوا صادقين فكان خصمكم وهو النبيّ عليه السلام صـــادقا فـــالقرآن معجز، فوجب عليكم الإيمان به لتتقوا من العذاب... انظـــر كيـــف أوجـــز التنـــزيل فاعجز. ثم انه ذكر موضع استثناء نقيض التالي وهو "لكن ما تفعلون" لفظ (إن لم تفعلوا) مشيراً بتشكيك "إن" إلى مجاراة ظنـــهم، وبالـــشرطية إلى استلزام نقيض التالي لنقيض المقدم. ثم ذكر موضع النتيجة وهي نقيض المقـــدم أعني فلم تكونوا صادقين علة لازم لازمها وهي قوله (فاتقوا النـــار) لتـــهويل الترهيب والتهديد. [2]

يؤكّد المقصد (الحشر) أنّ الإنسان هو مركز الخلقة، أي محور الرحى الذي يدور حوله العالم خدمة وتسخيرا، خدمه الكون في الجانبين المادي والمعنـــوي، فالمادي بجعل الكون شاملا لمجموع عناصر حياته المادية، والمعنوي بجعله درسا مستمرا وتذكيرا دائما بالآخرة، لهذا يعتبر إثبات الحشر قطعا لدابر التـــساؤل المتبادر في قولهم "ما أهمية البشر حتى تقوم القيامة لأجله ويخرب العالم لسعادته؟ فكأن هذه الجملة تجيبه بـــ"إن من هُيّئَ جميع ما في الأرض لاستفادته وسُخّر له الأنواع له أهمية عظيمة تشير إلى انه هو النتيجة للخلقة"."[3]

---

١. انظر الشعاعات ٢٧٨

٢. إشارات الإعجاز ١٨٩

٣. انظر إشارات الإعجاز ٢٢٧

هـ. دور الإيمان بالحشر في تسلية القلوب وطمأنتها:

الإيمان بالحشر وفق التصوّر المؤسس على التوحيد المستصحب لمجموع المعطيات الإيمانية بأبعادها النفسية والاجتماعية لا تزعزعه الفتن لأنّه محصّن بحصن منيع[1]، بل إنّ التعلّق بالحشر يعطي لكل يوم من حياتك معنى وقيمة لا يمكن كسبها خارج التصوّر التوحيدي للكون والحياة، ذلك أنّه "يجعل" كلّ يوم من أيام العمر ، مكسبا لثواب عبادة عشرة أيام،بحسب النية والجهد المبذول، ويمكن أن يحوّل ساعاته الفانية – من حيث النتيجة – إلى ساعات باقية خالدة.. بل يمكن أن يكون قضاء عبادة بضع سنين في الدنيا وسيلة نجاة من سجن أبدي لملايين السنين"، فتحوّلت الساعات الفانية إلى ساعات باقية بفعل استصحاب الآخرة في مزاولة الأفعال بصفة عامة ومنها المكوث في السجن.

إن للإيمان بالآخرة أبعادا كثيرة تتجلى نتائجها في جميع ميادين الفعل البشري، فتسلي القلوب وتضبط حركة العقول، فيولّد الإيمان بها محبّة دنيوية لغاية أخروية، وينال المحب بذلك "نتيجة أخروية للمحبة المشروعة المكللة بالشكر لله، نحو الأطعمة اللذيذة والفواكه الطيبة في الدنيا، هي تلك الأطعمة والفواكه الطيبة اللائقة بالجنة الخالدة.. كما ينص عليه القرآن الكريم. هذه المحبة، محبة ذات اشتياق واشتهاء لتلك الجنة وفواكهها." حتى أنّ الفاكهة التي تأكلها في الدنيا وتذكر عليها "الحمد لله" تتجسم في الجنة فاكهة خاصة بها وتقدّم إليك طيبة من طيبات الجنة. فأنت تأكل هنا فاكهة، وهناك "الحمد لله" مجسمة في فاكهة من فواكه الجنة.. وحيث إنّك تقدم شكراً معنوياً لذيذاً برؤيتك الإنعام الإلهي والالتفات الرباني في الأطعمة والفواكه التي تتناولها هنا، فستسلم إليك هناك في

١. انظر الكلمات ٦٠-٩٩، وذيل رسالة الحشر ١٠٢

الجنة أطعمة لذيذة وفواكه طيبة، كما هو ثابت في الحديث الشريف وبإشارات القرآن الكريم، وبمقتضى الحكمة الإلهية ورحمتها الواسعة."[1]

ويحبّب الله إلى الخلق الجنّة بما أعدّه لهم من نعيم لا حصر له حال الطاعة، فهو أهل "لحور العين المترفلات بسبعين حلّة من حلل الجنّة المتنوعة بأنواع لطائفها وزينتها، والمتجملات بسبعين نوعاً من أنواع الحسن والجمال حتى كأنهن جنة مجسمة مصغرة تنبض بالروح والحياة، لتقرّ بها عينُ النفس التي أطاعت الله وتهدأ بها المشاعر التي اطمأنت إلى أوامر الله.. فهذه النتيجة لا ريب فيها، إذ الآيات الكريمة تصرح بها يقيناً"[2] كل ذلك لمن آمن بالحشر وعمل لما بعد الموت.

إنّ الإيمان بالحشر يدفع العبثية ويبعث الحيوية في قلوب البشر وعقولهم وييسّر لهم الدافع الموضعي لفعل الخير والابتعاد عن الشر، ذلك أنّه لا يتصوّر أنّ الخالق ذي الجلال الذي أظهر سلطان ربوبيته بتدبير قانون الوجود ابتداء من الذرات وانتهاء بالمجرات، بغاية الحكمة والنظام وبمنتهى العدالة والميزان.. أن لا يعامل بالإحسان من احتموا بتلك الربوبية وانقادوا لتلك الحكمة والعدالة، وأن لا يجازي أولئك الذين عصوا بكفرهم وطغيانهم تلك الحكمة والعدالة؟.[3]

ويؤكّد تلك الحقيقة بأساليب متنوّعة، منها،أنّ الإنسان لا يلقى ما يستحقه من الثواب أو العقاب في هذه الحياة الفانية على وجه يليق بتلك الحكمة وتلك العدالة إلا نادراً، بل يؤخر، إذ يرحل اغلب أهل الضلالة دون أن يلقوا عقابهم، ويذهب أكثر أهل الهداية دون أن ينالوا ثوابهم.. فلابد أن تناط القضية بمحكمة

---

١. الكلمات ٧٧٥

٢. الكلمات ٧٧٦

٣. الكلمات ٦٨

عادلة، وبلقاءٍ آيل إلى سعادة عظمى. وذلك لا يتأتّى بغير الحشر ثم الحساب[1]، إنّه نظام متناغم مع الحقائق الكونية الجلية في أدق مظاهر الكون المادية والمعنوية، وكون هذا شأنه لا يتصوّر أن يبقى الناس هملا من غير نيل ما يستحقون بما يوافق جهودهم، ولهذا قال النورسي: "أمن الممكن لمالك الملك ذي الجلال الذي أظهر في دار ضيافة الدنيا الفانية هذه، وفي ميدان الامتحان الزائل هذا، وفي معرض الأرض المتبدل هذا، هذا القدر من آثار الحكمة الباهرة، وهذا المدى من آثار العناية الظاهرة، وهذه الدرجة من آثار العدالة القاهرة، وهذا الحد من آثار الرحمة الواسعة! ثم لا ينشئ في عالم ملكه وملكوته مساكن دائمة، وسكنة خالدين، ومقامات باقية، ومخلوقات مقيمين.فتذهب هباءاً".[2]

رابعا: المقصد الرابع : العدالة والعبودية

اعتبر النورسي العدالة مقصدا أساسيا من مقاصد القرآن الكريم ومن ثم عدّها من عمد مقاصد رسائل النور، اعتنى الأستاذ بهذا المقصد وحاول بيان مختلف وجوه حضوره في المقاصد الأخرى، لهذا يستدعي البحث جهدا تركيبيا، يتتبّع الإشارات المندمجة فيها لنخلص إلى تقرير نظرة إجمالية عن هذا المقصد.

يؤكّد بديع الزمان في النص المؤسس لمقاصد القرآن من خلال رسائل النور أنّ العدالة والعبودية مقصد من المقاصد الأربعة الأساسية للقرآن الكريم[3]

وأكّد تلك المعاني بتقرير حقيقة ناصعة مفادها أنّ العدالة الحقة مطلب طلاّب النور وهدفهم المنشود في التأسيس النظري للرؤية الكونية التوحيدية من

---

١. انظر الكلمات ٦٨

٢. الكلمات ٨٨

٣. انظر المثنوي العربي النوري ٧٥

جهة وغاية تصرّفاتهم الاجتماعية من جهة أخرى، يظهر هذا الحكم في مقام رده على الذين رموا أهل الإيمان بالرجعية، فيقول رحمه الله: "إنّ لطلاب القرآن وخدّامه إزاء هذه المظالم الفظيعة لهذه الرجعية الوحشية مئات من قوانين القرآن الأساسية من أمثال ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزرَ أُخرَى﴾(الأنعام: ١٦٤) التي تحقق العدالة الحقة والاتحاد والأخوة. فإطلاق الرجعية على أهل الإيمان الذين يحققون العدل والأخوة، واتهامهم بذلك يشبه ترجيح محاكم التفتيش على عدالة القرآن الكريم العظيمة".[١]

وأسس تلك العدالة والانتظام إنّما نشأ بتذكير أهل الدين وإرشاداتهم. فأسس العدالة والفضيلة شيّدها الأنبياء عليهم السلام. أي إنّ الأنبياء هم الذين أرسوا تلك القواعد والأسس، وهم الذين جعل الله لهم الفضل في إشباع حاجة الإنسان الضرورية للعدالة، ذلك أنّ الإنسان محتاج إلى نبي يمسك بميزان العدالة الإلهية النافذة والمؤثرة في الوجدان والطبائع[٢]

١. مختلف مظاهر العدالة

يمكن أن ينظر إلى العدالة من منظور رسائل النور من زوايا مختلفة متنوّعة، بعضها يقسّمها إلى إيجابية وتقابلها سلبية ، وأخرى يمكن أن نقسّمها إلى عدالة منظورة وعدالة مسطورة، ثالثة تقسّمها إلى محضة وإضافية.

أ. القسمة الأولى: الإيجابية والسلبية

يذكر الأستاذ أنّ للعدالة شقين أحدهما إيجابي والآخر سلبي

---

١. الملاحق ٣٧٤

٢. انظر صيقل الإسلام ١٣٩

– القسم الإيجابي:

ويكمن في إعطاء كلّ ذي حق حقه. فهذا القسم من العدالة محيط وشامل لكلّ ما في هذه الدنيا لدرجة البداهة. يظهر هذا القسم بأنّ ما يطلبه كلّ شيء وما هو ضروري لوجوده وإدامة حياته التي يطلبها بلسان استعداده وبلغة حاجاته الفطرية وبلسان اضطراره من الفاطر ذي الجلال يأتيه بميزان خاص دقيق، وبمعايير ومقاييس معينة، أي أنّ هذا القسم من العدالة ظاهر ظهور الوجود والحياة.

– القسم السلبي:

تأديب غير المحقين، أي إحقاق الحق بإنزال الجزاء والعذاب عليهم. فهذا القسم وإن كان لا يظهر بجلاء في هذه الدنيا إلاّ أنّ هنالك إشارات وأمارات تدلّ على هذه الحقيقة.خذ مثلاً سوطَ العذاب وصفعات التأديب التي نزلت بقوم عاد وثمود بل بالأقوام المتمرّدة في عصرنا هذا، مما يظهر للحدس القطعي هيمنة العدالة السامية وسيادتها.[1]

ب. القسمة الثانية: العدالة المحضة والعدالة الإضافية

– النوع الأول : العدالة المحضة

أستفيد هذا النوع من العدالة من منطوق القرآن الكريم، إذ تفيد الآية الكريمة: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى﴾ (الأنعام: ١٦٤)، تفيد العدالة المحضة، أي لا يجوز معاقبة إنسان بجريرة غيره، ويستغل الأستاذ الفرصة للتذكير بخطورة العزوف عن تلك العدالة المطلوبة، فيؤكّد في مطلع الحديث على أنّ القرآن

١. انظر الكلمات ٩١ (الهامش)

الكريم ومصادر الشريعة الأخرى وآداب أهل الحقيقة والحكمة الإسلامية كلّها تنبهك إلى وجوب التعامل بعدل من هنا كان إضمار العداء للمؤمن والحقد عليه ظلم عظيم، لأنّه إدانة لجميع الصفات البريئة التي يتصف بها المؤمن بجريرة صفة جانية فيه. والأشنع أن يمتد العداء إلى أقاربه وذويه بسبب صفة تمتعض منها، فهو ظلم أعظم، كما وصفه القرآن الكريم بالصيغة المبالغة: ﴿إِنَّ الإنسان لَظَلُومٌ﴾ (إبراهيم: ٣٤)، إنّ عداء المؤمن ظلم مبين، من حيث الحياة الشخصية. وبأسلوب تربوي يسترعي الانتباه والتنويه، يلفت الأستاذ النظر إلى دساتير تؤكّد ذلك التفسير والتعليل، يستشف هذا في عبارته: "فإن شئت فاستمع إلى بضعة دساتير هي أساس هذا الوجه من التفسير والتعليل، وبهذا يقرر بعدا تربويا للعدالة المحضة، ذلك البعد الذي له أثر عظيم على المضامين المنهجية والاجتماعية والأخلاقية بصفة عامة"[1].

ومن تلك المضامين أنّ العدالة المحضة المستمدة من القرآن الكريم، لا تضحي بحياة برئ واحد، ولا تهدر دمه لأي شيء كان، لا في سبيل الأكثرية، ولا لأجل البشرية قاطبة.إذ الآية الكريمة ﴿مَن قَتَل نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض فكأنما قَتَل الناسَ جميعاً﴾(المائدة: ٣٢) تضع سرّين عظيمين أمام نظر الإنسان:

– السر الأول: العدالة المحضة، ذلك الدستور العظيم الذي ينظر إلى الفرد والجماعة والشخص والنوع نظرة واحدة، فهم سواء في نظر العدالة الإلهية مثلما أنهم سواء في نظر القدرة الإلهية. وهذه سنة دائمة. إلاّ أنّ الشخص يستطيع –برغبة من نفسه– أن يضحي بنفسه، من دون أن يُضحّي به قطعاً، حتى في سبيل الناس جميعاً. لأن إزهاق حياته وإزالة عصمته وهدر دمه بإبطال حق الناس جميعاً شبيه بإزالة عصمتهم جميعاً وهدر دمائهم جميعاً.

---

١. انظر المكتوبات ٣٣٩ – ٣٥٠

– السر الثاني: هو لو قتل مغرورٌ بريئاً دون ورع، تحقيقاً لحرصه وإشباعاً لنزواته وهوى رغباته، فإنّه مستعد لتدمير العالم والجنس البشري إن استطاع.[1]

– النوع الثاني: العدالة الإضافية

عرّف بديع الزمان العدالة الإضافية بالمثال، فقال رحمه الله: "هي أنّ الجزء يضحى به لأجل سلامة الجميع، فهذه العدالة لا تأخذ حق الفرد بنظر الاعتبار لأجل الجماعة، وإنّما تحاول القيام بنوع من عدالة إضافية من حيث الشر الأهون.

ولا يصار إلى العدالة الإضافية إلا إذا كانت العدالة المحضة غير قابلة للتطبيق، لهذا إذا صار إليها في حال إمكان تطبيق العدالة المحضة وقع الظلم".[2]

ويواصل الأستاذ أسلوبه المرتكز على التمثيل، فيذكر في سياق توضيح الفرق بين العدالة المحضة والعدالة الإضافية مثالا مفاده ما يأتي:

إنّ حق الشخص البريء الواحد لا يبطل لأجل الناس جميعاً، أي أنّ حقه محفوظ، وهذا المعنى هو الذي تشير إليه الآية الكريمة ﴿مَنْ قَتَلَ نَفساً بِغَيرِ نَفسٍ أو فَسَادٍ فِي الْأَرضِ فَكَأنما قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً﴾ (المائدة: ٣٢) فلا يُضحى بفردٍ واحد لأجل الحفاظ على سلامة الجميع، إذ الحق هو حق ضمن إطار الرحمة الإلهية، فلا يُنظر إلى كونه صغيراً أو كبيراً، لذا لا يُفدى بالصغير لأجل الكبير، ولا بحياة فرد وحقه لأجل سلامة جماعة والحفاظ عليها، إن لم يكن له رضا في الأمر.أما إذا كانت التضحية برضاه ورغبة منه فهي مسألة أخرى.

---

٢. الكلمات ٨٦٢

٢. المكتوبات ٦٧

لهذا فالعدالة الإضافية تفدي بالجزء لأجل الكل بشرط أن يكون لذلك الجزء المختار الرضا والاختيار صراحة أو ضمناً، إذ عندما يتحول " أنا " الإفراد إلى "نحن" الجماعة ويمتزج البعض بالبعض الآخر مولداً روح الجماعة، يرضى الفرد أن يضحي بنفسه للكل.[1]

ج. القسمة الثالثة: العدالة المنظورة والعدالة المسطورة

يتجلى في الكون عدالة مطلقة إنّها عدالة جارية في الكون وهي نابعة من التجلي الأعظم لاسم "العدل" إنّما تدير موازنة عموم الأشياء، وتأمر البشرية بإقامة العدل[2]، ويعرف الأول في سياق هذه الفقرة بالعدالة المنظورة بينما يعرف الثاني بالعدالة المسطورة أي التي أخبر بها الأنبياء عليهم السلام ولاسيما خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

– النوع الأول: العدالة المنظورة

الناظر ببصيرة إلى الكون في عناصر المادية والمعنوية يحكم دون تردد بأنّ في الكون عدالة مطلقة، تلك العدالة هي سنن الله الجارية في الكون، وهي دستور إلهي شامل تدور رحى الموجودات عليه لا يفلت منها شيء[3]، إنّها عدالة مطلقة كلّ عضو من الكائن الحي في موضعه اللائق به، وتنسقه بموازين دقيقة حساسة – ابتداء من ميكروب صغير إلى كركدن ضخم، ومن نحل ضعيف إلى نسر مهيب، ومن زهرة لطيفة إلى ربيع زاهٍ بملايين من الأزهار، وتراها تمنح كل عضو تناسقا لا عبث فيه، وموازنة لا نقص فيها، وانتظاماً لا ترى فيه إلاّ

---

١. انظر صيقل الإسلام ٣٣٧

٢. انظر اللمعات ٥٢٦

٣. انظر اللمعات ٥٢٥

الإبداع، كل ذلك ضمن جمال زاهر وحسن باهر حتى تغدو المخلوقات نماذج مجسمة للإبداع والإتقان والجمال والعدالة.[1]

ومن تلك المخلوقات التي تمثّل الأمر الإلهي السماوات والأرض، إذ تبيّن أنّها كالجنود المرابطين في معسكرين، كما أنهم يهرعون إلى أخذ مواقعهم وتسلم أسلحتهم بدعوة من القائد وبنفخة من بوق، كذلك السماوات والأرض... بل نرى هذه العظمة والطاعة في كل ربيع إذ يُحشَر ما في معسكر الأرض من جنود وينشَرون بنفخة من بوق مَلَك الرعد.. فبناء على التحقيقات السابقة، لابد أن تلك الرحمة والحكمة والعناية والعدالة والسلطنة السرمدية ستحقق أبعادها وغاياتها في هذه الدنيا ولها امتداد في دار أخرى[2]، نبيّن حقيقتها في العدالة المسطورة.

– النوع الثاني: العدالة المسطورة

العدالة المسطورة التي جاء بها النبي ﷺ تهب لكل ذي حياة حق الحياة، وتنصّب له موازين عدالة فائقة، فجزاء الحسنة حسنة مثلها، وجزاء السيّئة سيّئة مثلها، وفي الوقت نفسه تُشعر قوتها و سرمديتها، بما تنزل من عذاب مدمر على الطغاة والظالمين منذ عهد آدم عليه السلام. فكما لا تكون الشمس دون نهار، فتلك الحكمة الأزلية، وتلك العدالة السرمدية لن تتحققا تحققاً كلياً إلاّ بحياة أخرى خالدة لذا لن ترضيا أبداً ولن تساعدا بحال من الأحوال على نهاية لا عدالة فيها ولا حكمة ولا إحقاق حق، تلك هي الموت الذي لا بعث بعده، والذي يتساوى فيه الظالمون العتاة مع المظلومين البائسين، فلابد إذن أن تكون

---

١. الشعاعات ٢٦٤

٢. الشعاعات ٢٦٨

وراءه حياة أخرى خالدة كي تستكمل الحكمة والعدالة حقيقتهما.[1]

أي أنّها تقتضي الحشر بالضرورة، إذ لاشك في مجيء الآخرة، بل إنّ عدم مجيئها محال في ألف محال، حيث إنّ عدمها يعني:

تبدلّ "الرحمة" التي هي في منتهى الجمال قسوة في منتهى البشاعة.

تحوّل كمال "الحكمة" إلى نقص العبث القاصر وغاية الإسراف.

انقلاب "العناية" التي هي في منتهى الحسن واللطف إلى إهانة في منتهى القبح والمرارة.

تغيّر "العدالة" التي هي في منتهى الإنصاف والحق إلى ظلمات في أشد القسوة والبطلان.

زد على ذلك فإنّ عدم مجيء الآخرة يعني أيضا سقوط هيبة السلطنة السرمدية العزيزة وبوار أبهتها وقوتها.

اتهام كمال الربوبية بالعجز والقصور..

وكل ما سبق ذكره باطل ومحال لا يقبله عقل أي إنسان مهما كان، وهو الممتنع والخارج عن دائرة الإمكان، لأنّ كل ذي شعور يعلم أن الله سبحانه قد خلق هذا الإنسان في أحسن تقويم، ورباه أحسن تربية، وزوّده من الأجهزة والأعضاء – كالعقل والقلب – ما يتطلع به إلى السعادة الأبدية ويسوقه نحوها، ويدرك كذلك مدى الظلم والقسوة إذا ما انتهى مصير هذا الإنسان المكرم إلى العدم الأبدي، ويفهم كذلك مدى البُعد عن الحكمة في عدم البعث الذي يجعل جميع الأجهزة والقوى الفطرية – التي لها آلاف المصالح والفوائد دون جدوى ودون قيمة[2]

---

١. الشعاعات ٢٦٤

٢. انظر الشعاعات ٢٦٨

– تناغم وتوافق المنظور والمسطور من العدالة:

يتخيّل بعض الناس أنه ليس للعدالة الكونية الضامنة لسير الكون وفاعليته صلة بالعدالة المسطورة التي أخبر النبي ﷺ بها، وخاصة في جانبها العقدي، فضلا عن الجوانب التشريعية البحت.

إنّ للعدالة المنظورة أثر عظيم في طلب العدالة المسطورة، ذلك أنّ صدى الحرية والعدالة المتجلية في الكون تبعث الحياة في مشاعرنا المدنية وآمالنا الخامدة ورغباتنا الرفيعة وأخلاقنا الإسلامية الحميدة، حتى كأن الكرة الأرضية وما فيها مجذوبة جذبة المولوي (المنتسب إلى مولانا جلال الدين الرومي) بفعل تلك العدالة التي يتعدى مفعولها إلى الأمة فتهيّجها جميعا ويهزّها هزّ المجذوب [1] على تمثّل العدالة والسير وفق سنن خالقها فيها، من هنا كان التوافق جليا بين مظهر العدالة المنظورة و المسطورة.

فمثلا إن وجود جهنم وعذابها الشديد لا ينافي قطعاً العدالة الحقيقية، ولا الحكمة الموزونة التي لا إسراف فيها، ذلك أنّ العدالة في حقيقة الأمر لا تتجزّأ، لها تجلّياتها في الآيات المنظورة والآيات المسطورة، لهذا فإنّ الرحمة والعدالة والحكمة تتطلّب وجود جهنم وتقتضيه، لأنّ قتل حيوان افترس مائة من الحيوانات أو إنزال عقاب بظالم هتك حرمات ألفٍ من الأبرياء، هو رحمة بآلاف الأضعاف للمظلومين من خلال العدالة. وإنّ إعفاء ذلك الظالم من العقاب أو التجاوز عنه، وترك ذلك الحيوان الوحشي طليقا، فيه ظلم شنيع وعدم رحمةٍ لمئات المساكين بمئات الأضعاف، إزاء رحمة في غير موضعها.ومثل هذا أيضا، الكافر المطلق – الذي يدخل سجن جهنم – فإنّه بكفره ينكر حقوق الأسماء الإلهية الحسنى، أي يتعدى على تلك الحقوق.. وبتكذيبه لشهادة

١. انظر صيقل الإسلام ٤٦٦

الموجودات – الشاهدة على تلك الأسماء – يتعدى على حقوقها أيضا.. وبإنكاره للوظائف السامية للمخلوقات – وهي تسبيحاتها تجاه الأسماء – يتجاوز على حقوقها..[1]

ومن مظاهر التفاعل الإيجابي مع العدالة الاستجابة لنداء العبودية المنسجم مع عبادات سائر المخلوقات، لهذا كان جحود أنواع العبادات التي تؤديها المخلوقات تجاه تظاهر الربوبية والألوهية – وهي غاية خلقتها وسبب من أسباب وجودها وبقائها – تعديا صارخا على حقوق جميع المخلوقات، لذا فالكفر جناية عظيمة وظلم شنيع تتجاوز بشاعته كل حدود العفو والمغفرة، فيحق عليه إذن تهديد الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغفِرُ أن يُشرَكَ به..﴾(النساء: ٤٨)، بل إنّ عدم إلقاء مثل هذا الشخص في جهنم رحمةً به هو أمر ينافي الرحمة منافاة كلية في حق هذه الأعداد الهائلة من المخلوقات والكائنات التي أُنتهكت حقوقها.

وهكذا مثلما يطالب أصحاب الدعاوى بوجود جهنم، فإن عزّة جلال الله وعظمة كماله سبحانه تطلبانها قطعا.

ولبيان تلك المطالبة اختار الأستاذ التمثيل بالواقع المعيش للبشر، مثاله، إذا قال سفيه أو شقي عاص لحاكم عزيز للبلاد: إنّك لا تستطيع أن تقذفني في السجن ولن تقدر على ذلك أبدا، متجاوزاً بذلك حدّه ومتعدّيا على عزّة ذلك الحاكم وعظمته، فلابدّ أن ذلك الحاكم سينشئ سجنا خصا بذلك السفيه المتعدي حتى لو لم يكن هناك سجن في البلاد، كذلك الأمر في الكافر المطلق، فإنّه بكفره يتعدى بشدّة على عزّة جلاله سبحانه، وبإنكاره يتحدّى عظمة قدرته، وبتجاوزه يمسّ كمال ربوبيته، فإن لم يكن هناك حتى تلك الأسباب الموجبة وتلك المبررات الكثيرة والحكم العديدة والوظائف الكثيرة لجهنم

---

١. انظر الشعاعات ٢٨٧

ولوجودها، فإن خلق جهنم لمثل هؤلاء الكفار وإلقاءهم فيها هو من شأن تلك العزة وذلك الجلال.

٢. العدالة والعبودية في العقائد

نحاول من خلال هذه الفقرة التأكيد على الربط بين العدالة والعبودية في فكر بديع الزمان، وتأكيدا لربط فكرة العدالة بالعبودية يذكر الأستاذ المسألة موضّحا من خلال حديثه المسهب –وظيفيا– عن الكفر، فيقول–رحمه الله–: "ثم إن ماهية الكفر نفسها توحي بجهنم، إذ كما أن ماهية الإيمان إذا تجسمت يمكن أن تبني بلذائذها ونعيم جمالها جنة خاصة في وجدان الإنسان وقلبه، هي جنة مصغرة تومئ وتخبر عن جنة الخلد التي تنتظره في الآخرة، كذلك الكفر – ولاسيما الكفر المطلق – والنفاق والردة فيه من الآلام والعذاب والظلمات المرعبة بحيث لو تجسمت وتأصلت في نفس صاحبها كونت له جهنمه الخاصة به[١]، وفي ذلك أظهر الأسس الفكرية المؤسسة والمؤصّلة للعدالة التي هي التوافق مع سنن الله في الخلق، ومن ثمّ كان تمثّلها في جانبها المسطور إضافة إلى المنظور مسلكا مؤسسا لعدالة القوانين المعبّرة عن الأمّة وتذكارها وتجلّ من تجليات الله سبحانه وتعالى[٢].

٣. العدالة وحضورها في مختلف مضامين المقاصد

تعدّ العدالة دليلا مؤسسا للتوحيد والرسالة والنبوة والحشر، وهي في ذات الوقت مظهر من مظاهر المقاصد الثلاثة الآنفة الذكر (التوحيد، النبوة، الحشر)، من هنا كان للعدالة تجليات في المقاصد أولا وفي الآفاق والأنفس ثانيا، وفي ذكر تلك التجليات أظهر برهان وأسطعه.

---

١. انظر الشعاعات ٢٨٧ – ٢٨٨

٢. انظر السيرة الذاتية ٣٣٨

أ. العدالة والمقصد الأول (التوحيد):

يتناول التأسيس للتوحيد من خلال العدالة من زاويتي الوجود والعدم، فالأولى فعل إيجابي من شأنه أن يتولى بيان العناصر التي تقيم أصله وتحافظ على حضوره، والثانية فعل سلبي من مهامه الأساسية صد العناصر التي من شأنها التشويش على التوحيد أو تأخير تمكينه من القلوب والعقول.

– العدالة ودورها في التمكين للتوحيد من جانب الوجود:

التمكين للتوحيد نظر في كثير من صوره إلى العدالة المتجلية في الكون والمتدلية كالثمار المقتطفة من شجرة الحياة، تظهر العدالة كفعل مؤسس للتوحيد في رسائل النور، إذ تمثّل جزء من مظاهر الربوبية، وهي مبنى جريان الكون وحمايته وديمومته وسريان فوائده المنتظرة في صالح الإنسان أو الأشياء، وفي كل ذلك أكبر براهين وأدلّة التوحيد.

التوحيد الذي نشاهد براهينه الساطعة القاطعة في العدالة المبثوثة في هذا الكون، تلك العدالة التي تعبّر عن عادة الربوبية الجارية في الكون.[1]

يقول الأستاذ في تأكيد تلك المعاني: "إنّنا نشاهد بأعيننا في هذا الكون أنّ من عادة الربوبية الجارية في كل آن بالعدالة والحكمة والعناية، حماية الأبرار وتأديب الكذابين الفاسدين نشاهدها ضمن تصرّفاته المنتظمة جل جلاله."[2]

يعدّ النظام المبثوث في الكون أكبر دليل مؤسس للتوحيد، ومبنى ذلك النظام العدالة وهي بدورها أكبر دليل على إثبات المراد، فهي تمثّل بالنسبة للتوحيد حجّة ودليلا ومطلبا ومقصدا في ذات الوقت، يتجلى هذا الأمر في "أنّ الحاكم

---

١. انظر الشعاعات ٦٦٧

٢. الشعاعات ٦٦٧

الحكيم والعليم الرحيم الذي كتب هذا الكون بشكل كتاب، حتى سجّل تاريخ حياة كلّ شجرة في كلّ بذر من بذورها، ودوّن وظائف حياة كل عشب ومهام كلّ زهر في جميع نواها. وكتّب جميع حوادث الحياة لكلّ ذي شعور في قواه الحافظة الصغيرة كحبّة الخردل. واحتفظ بكلّ عمل في ملكه كافة وبكل حادثة في دوائر سلطنته بالتقاط صورها المتعددة، والذي خلق الجنة والنار والصراط والميزان الأكبر لأجل تجليات وتحقق العدالة والحكمة والرحمة التي هي أهم أساس للربوبية."[1]

والشواهد على إثبات تلك الحقيقة وتثبيتها أكبر من أن تحصى، بحيث تبلغ حد الكثرة الكاثرة من المشاهد السارية على العوالم السيّارة المتجددة.[2]

نرى في العالم عدالة تجليها حكمة عامة عالية، بشهادات رعاية المصالح والفوائد في كل شيء، وبدلالات الانتظامات والاهتمامات وحسن الصنعة في جميع المخلوقات، فهذه الحكمة الحاكمة في سلطنة الربوبية، تقتضي تلطيف المطيعين الملتجئين إلى جناحها.. كما تدل شهادات وضعه كل شيء في الموضع اللائق، وإعطاء كلّ ذي حق حقه الذي يستعد له، وإسعاف كل ذي حاجة حاجته التي يطلبها – لوجوده أو حفظ بقائه – وإجابة كل ذي سؤال سؤاله. وبالخاصة: إذا سئل بلسان الاستعداد أو بلسان الاحتياج الفطري أو بلسان الاضطرار.. فهذه العدالة تقتضي محافظة حشمة مالكيته، وربوبيته، بمحافظة حقوق عباده في محكمة كبرى، مع أن هذه الدار الفانية أقل وأحقر وأضيق وأصغر من أن تكون مظهراً لحقيقة تلك العدالة، فلابد حينئذ لهذا الملك العادل والرب الحكيم ذي الجمال الجليل والجلال الجميل من جنة باقية وجهنم دائمة.[3]

---

١. الشعاعات ٢٩٩

٢. انظر الشعاعات ٣١٣

٣. المثنوي العربي النوري ٩١

– العدالة ودورها في صيانة التوحيد من جانب العدم:

النظر إلى العدالة من زاوية دورها في صد العناصر الملوّثة للبيئة الفطرية السليمة، يؤكّد أنّ لها منزلة عظيمة في صيانة الإيمان من كلّ ما من شأنه أن يعدمه أو يضيّع وظيفته الاجتماعية، في إطار هذه الملاحظة يمكن أن نستوعب اهتمام الأستاذ النورسي بمقارعة الكفر والتنبيه إلى خطورته الفكرية والتربوية والحضارية، فسعى جاهدا إلى المرافعة عن التوحيد من خلال المرافعة عن الإيمان، وذلك بصد مؤامرات الكفر والإلحاد، وبهذا الصدد ينبّه بديع الزمان في أسلوب واضح إلى خطورة ذلك النوع من الأفكار من جهة، ويلخّص في ذات الوقت مهمّته الأساسية في حماية الإيمان من شيوع الكفر من جهة أخرى، فيذكر – رحمه الله أنّ رسائل النور تقوم بتحطيم الكفر المطلق، الذي أسفله الفوضى (مظهر ضياع العدالة) وأعلاه الاستبداد المطلق (مظهر تضييع العدل) – وتفتيته وردّه على أعقابه.وأكبر برهان على ذلك هو رسالة "الثمرة" التي هي بمثابة دليل واحد من بين مائة حجة ودليل على أنّ رسائل النور تسعى لتأسيس الأمن والنظام والحرية والعدالة.[1]

ب. العدالة والمقصد الثاني (النبوة والرسالة)

– العدالة والنبوة:

النبي محمد ﷺ دال على الله معرّف بتوحيده، برهن على تلك الحقائق بحجج موافقة لأحكام العقول الفطرية، كما يدلّ على ذلك بما جاء به من أحكام موافقة للفطرة السليمة تضمّنتها رسالته التي كلّف بتبليغها عن الله، ليس هذا فحسب، بل يعدّ أظهر حجج العدالة الإلهية في الأرض سواء بتصرّفاته أو

١. انظر الشعاعات ٣٣٤

obeikandl.com

بمقتضى ما جاء به من قواعد وأصول وأوامر ونواهي، لهذا فهو كنبي حجّة، كما أنّ رسالتها نفسها حجّة إضافية .

من مظاهر تلك العدالة وبمقتضى أفعال الله الرحمانية أنزل القرآن المعجز البيان على محمّد ﷺ.. وإظهار أنواع المعجزات الكثيرة البالغة نحو ألف معجزة على يديه.. وحمايته له تحت جناح رأفته الشفيقة في كل حالاته، بل في أخطر أوضاعه حتى حمايته بالحمام والعنكبوت.. وتوفيقه توفيقاً معززاً في مهامه.. وإدامة دينه بجميع حقائقه.. وتتويج هامة الأرض والبشرية بإسلامه.. وإعلاء مقامه وشرفه إلى أرفع مقام وأشرفه.. وتفضيله على الموجودات كافة بمنحه مقاماً مرضياً مقبولاً ودائماً يفوق أفاضل الإنسانية.. وإعطائه شخصية تحمل أجمل الخصال الحميدة الرفيعة باتفاق الأولياء والأعداء حتى جعل خمس البشرية من أمّته.. كل ذلك يشهد شهادة صادقة قاطعة على صدقه ﷺ ورسالته.[1] وكلّ ذلك شاهد على أنّه نبي العدالة حمّل رسالة عدالة توافقها عدالة المظاهر الكونية، فتكاملت شهاداتان في العدالة المطلقة.

– العدالة والرسالة:

تدلّ أفعال ربوبيته جلّ جلاله على أنّه متصرّف هذا العالم ومدبّر شؤونه، كما تدلّ أيضا على أنّه جعل رسالة محمد ﷺ شمساً معنوية للكون... بدّد بها جميع الظلمات، مظهراً بها حقائق الكون النورانية.. وأبهج ذوى الشعور قاطبة بل الكون بأسره ببشارة الحياة الباقية.. وجعل دينه أيضاً فهرس كمالات جميع عباده المقبولين، ومنهجاً قويماً لأفعال العبودية.. وجعل الحقيقة المحمدية وهي شخصيته المعنوية مرآة جامعة لتجليات ألوهيته بدلالة القرآن الكريم.. بل جعله ينال – علاوة

---

١. الشعاعات ٦٦٧

على الحقائق من أمثال حسنات أمته كافة في كل يوم طوال أربعة عشر قرناً.. وبعثه إلى البشرية وأناط به وظائف جليلة سامية.. وجعله أحسن قدوة وأعظم مرشد وأكرم سيّدٍ للبشرية قاطبة، بدلالة آثاره في الحياة الاجتماعية والمعنوية والبشرية، وجعل البشرية محتاجة إلى دينه وشريعته وحقائقه التي أتى بها في الإسلام حاجتها إلى الرحمة والحكمة والعدالة والغذاء والهواء والماء.[1]

وتعدّ الشريعة من أبرز ما جاءت به الرسالة النبوية، تنسحب عليها الصفات التي تحلّت بها الرسالة نفسها، لهذا كانت الشريعة بدورها مظهرا من مظاهر العدالة.

– الشريعة مظهر العدالة:

رسمت الشريعة طريق السعادة بل هي نفسها سبب في جلب السعادة، ذلك أنّها هي العدالة المحضة والفضيلة، لهذا انتهى الأستاذ النورسي إلى تبني التضحية من أجل الشريعة، إذ يصرّح بأنّه لو كان له ألف روح لكان مستعدا لأن يضحي بها في سبيل حقيقة واحدة من حقائقها، بشرط أن تكون الشريعة الحقة، وليست كتلك التي يطالب بها المتمردون.[2] لأنّ للشريعة دور في تأسيس إطاعة قانون العدالة الإلهية وامتثال النظام الرباني إضافة إلى دورها في إدامة تصوّر عظمة الصانع في القلوب وتوجيه العقول. والإنسان يحتاج إلى تلك الإدامة من حيث هو إنسان لأنّه مدنيّ بالطبع.. فيا ويلَ من تركها ويا خسارة من تكاسل فيها، ويا جهالة من لم يعرف قيمتها، فسحقاً وبعداً وافّاً وتفّاً لنفسِ مَن لم يستحسنها.[3]

---

١. انظر الشعاعات ٦٦٧

٢. صيقل الإسلام ٤٤٠

٣. انظر إشارات الإعجاز ٥٣

ج. العدالة والمقصد الثالث (الحشر أو المعاد)

– عقوبة الظالم مظهر من مظاهر العدالة:

تقتضي العدالة وجود الآخرة، فكما أنّ الدلائل والحجج التي تثبت صدق القرآن الكريم بل جميع الكتب السماوية، وأنّ المعجزات والبراهين التي تثبت نبوة حبيب الله بل الأنبياء جميعهم، تثبت بدورها أهمّ ما يدعون إليه، وهو تحقق الآخرة والدلالة عليها. كذلك فإنّ أغلب الأدلة والحجج الشاهدة على وجوب واجب الوجود ووحدته سبحانه، هي بدورها شاهدة على دار السعادة وعالم البقاء التي هي مدار الربوبية والألوهية وأعظم مظهر لهما، وهي شاهدة على وجود تلك الدار وانفتاح أبوابها، لأنّ وجوده سبحانه وتعالى، وصفاته الجليلة، وأغلب أسمائه الحسنى، وشؤونه الحكيمة، وأوصافه المقدّسة –أمثال الربوبية والألوهية والرحمة والعناية والحكمة والعدالة– تقتضي جميعها الآخرة وتلازمها، بل تستلزم وجود عالم البقاء بدرجة الوجوب وتطلب الحشر والنشور للثواب والعقاب بدرجة الضرورة أيضاً.[1]

– الآخرة وتجلي العدالة:

الإيمان بالعدالة المحضة المطلقة يحافظ على الخير المبثوث في الكون ويدفع إلى الاستزادة منه، أمّا إنكار تلك الحقيقة فسيكون سببا في فعل الشرور ومدافعة الخير، ذلك أنّ تجلّي الحق والعدالة المحضة سيكون في الآخرة، وهو ميدان تغلّب الحسن والحق والخير الشخصي والعام، والجزئي والكلي، وهناك ستكون المحكمة الكبرى التي تجازي البشر ويكفأ الإنسان بما يوافق وينسجم مع استعداداته.[2]

---

١. انظر الشعاعات ٢٣٤

٢. انظر صيقل الإسلام ٥٤

الآخرة كما مرّ معنا مظهر من مظاهر العدالة وحجّة إضافية لها، ومن امتدادات ذلك كانت عقوبة الظالم مظهرا من مظاهر العدالة، لأنّ العدالة والحكمة الإلهيتان اللتان شهدت وتشهد عليهما الكائنات منـــزهتان عن الظلم، وهذا يقتضي وجود مجمع آخر ليرى الظالم جزاءه والمظلوم ثوابه، فتتجلى العدالة الإلهية في الموقف مـــن الأول كما تتجلى من الموقف من الثاني، لأنّنا كثيراً ما نرى الظالم الفاجر الغدّار في غاية التنعم، ويمرّ عمُره في غاية الطيب والراحة. ثم نرى المظلوم الفقـــير المتـــدين الحسن الخلق ينقضي عمره في غاية الزحمة والذلة والمظلومية، ثم يجئ الموتُ فيساوي بينهما. وهذه المساواة بلا نهاية تُري ظلماً، لهذا كان لا بد مـــن عقوبـــة الظـــالم وإنصاف المظلوم تحقيقا للعدالة.[1]

– المضمون الفكري والتربوي والاجتماعي لرؤية العدالة كمقصد:

المضمون الفكري لرؤية العدالة:

تيسّر رؤية العدالة في الكون الاستيعاب المجمل للنظام المبثوث فيه، ذلـــك النظام الذي يحكمه بشكل يسع بشكل واضح مشمولات الإدراك البشري من جهة، ويسمح بفهم المستعصي عن الاستيعاب في إطار تلك الرؤية الشاملة وإن عسر فهمه في إطاره الجزئي من جهة أخرى.

استيعاب تلك المعاني يسمح بقبول إطار نظري قطعي متكامـــل لتحليـــل الظواهر الجزئية أو الكلية، إذ النظر إلى الكون من زاويتي التوافق بين العدالـــة المنظورة والعدالة المسطورة، يسمح بالخلوص إلى نتيجة هامـــة، مفادهـــا: "إنّ الحاكم على الدهر وعلى طبائع البشر إلى يوم القيامة هو "حقيقة الإسلام" التي هي تجلّي العدالة الأزلية في عالم الكون، والتي هي برنامج الإنسانية الكبرى.

---

١. انظر إشارات الإعجاز ٦٦

كما أنّ الميل عن رؤية العادلة في خدمتها لمختلف حاجات الإنسان، من خلال إنكار توافق منظور العدالة ومسطورها في تحقيق مقصد التربية الفكرية، يعني التغافل عن حقيقة موضوعية،مفادها إسناد العجز التام إلى قدرة القدير المطلق، ونسبة العبث والضياع إلى الحكمة البالغة للحكيم المطلق، وإرجاع القبح المطلق إلى جمال رحمة الرحيم المطلق، وإسناد الظلم المطلق إلى العدالة التامة للعادل المطلق، أي إنكار كلّ من الحكمة والرحمة والعدالة الظاهرة المشاهدة، إنكارها كلياً من الوجود، وهذا من أعجب المحالات وأشدّها سخفاً وأكثرها بطلاناً.[1]

النظر في ألفاظ القرآن الكريم يؤكّد تلك المعاني، يشير إلى هذا المعنى قول بديع الزمان: "قلت: لما أُنزل (بسم الله) لتعليم العباد كان "قُلْ" مقدَّراً فيه. وهو الأُمّ في تقدير الأقوال القرآنية. فعلى هذا يكون في "قل" إشارة إلى الرسالة.. وفي (بسم الله) رمز إلى الألوهية.. وفي تقديم الباء تلويحٌ إلى التوحيد.. وفي (الرحمن) تلميحٌ إلى نظام العدالة والإحسان.. وفي (الرحيم) إيماء إلى الحشر."[2]

- العدالة وتبادل ثمرات السعي:

سير الكون وفق جعله يحتاج إلى تفاعل مجموعة كبيرة عددا من العناصر، ويضبط سيرها العدالة المتجلية في النظام، وأظهر ذلك النظام الإنسان.

"خُلق الإنسان ممتازاً ومستثنى من جميع الحيوانات بمزاج لطيف عجيب، أنتج ذلك المزاج فيه ميلَ الانتخاب وميلَ الأحسن وميلَ الزينة، وميَلاناً فطرياً إلى أن يعيش ويحيى بمعيشة وكمال لائقين بالإنسانية.. ثم لأجل تلك الميول

١. انظر اللمعات ٥٣٥

٢. إشارات الإعجاز ٢٤

احتاج الإنسان في تحصيل حاجاته في مأكله وملبسه ومسكنه إلى تلطيفها وإتقانها بصنائع جمة لا يقتدر هو بإنفراده على كلّها. ولهذا احتاج إلى الامتزاج مع أبناء جنسه ليتشاركوا، فيتعاونوا، ثم يتبادلوا ثمرات سعيهم. لكنّ لما لم يحدد الصانعُ الحكيم قوى البشر الشهوية والغضبية والعقلية بحدٍّ فطريّ لتأمين ترقّيهم بزَمْبَرَكِ الجزء الاختياريّ – لا كالحيوانات التي حُددت قواها – حصل انهماك وتجاوز.. ثم لانهماك القوى وتجاوزها – بسر عدم التحديد – تحتاج الجماعة إلى العدالة في تبادل ثمرات السعي.. ثم لأنّ عقل كلّ أحد لا يكفي في درك العدالة احتاج النوع إلى عقل كلّي للعدالة يستفيد منه عقل العموم. وما ذلك العقل إلاّ قانون كليّ".[1]

– العدالة حاجة نفسية (تسلية قلوب المظلومين):

استيعاب العدالة في إطارها الكلي يسلّي القلوب بما يظهر من القدر الإلهي بحقي العدالة الإلهية وعنايتها ضمن ظلم البشر. وقياساً على هذا، يرى الأستاذ أنّه ما من مصيبة تنزل به إلاّ وتحتها رحمة إلهية، إذ كانت تلك المصائب سببا في انشغال التلاميذ به، وكان من النتائج المباشرة للانشغال به إنقاذ مئات من رسائل النور، ولهذا يخاطبهم الأستاذ قائلا: "يا إخوتي لا تقلقوا عليّ أبداً، حتى أنّني كلّما نويت الدعاء عليهم – بسبب إهانتهم له إهانة شديدة تجرح مشاعري جرحاً أليماً – فإنّ الموت الذي يعدمهم، وتعرّضهم لعذاب القبر الذي هو سجن انفرادي لهم، وما ينتج من تلك الإهانة من المصالح لي والمنافع لخدمتنا.. كل ذلك يحول بيني وبين الدعاء عليهم فأتخلى عنه."[2]

---

١. إشارات الإعجاز ١٤٧

٢. انظر الملاحق ٢٨٣

– رؤية العدالة يؤسس للتعامل الإيجابي مع الدنيا:

الاقتناع بهيمنة العدالة على الكون، يؤسس للتعامل الإيجابي معه في عناصره المادية والمعوية؛ فرؤية المقصدية في كلّ مظاهر الكون ومكوّناته يدعونا بلسان حاله إلى ضرورة الانتظام مع تل المقاصد، لنكون نحن أيضا جزئا من القطعة الموسيقية تعزفها عناصر الكون في انتظامها، وبهذا يتعدج المؤن من أن يكون صوتا نشازا مشوشا على عناصر الكون، مفسدا للموسيقى التي تعزفها تلك المجموعة المتناغمة.

رؤية العدالة يؤسس للتعامل الإيجابي مع عناصر الكون، ذلك أنّ النظر في كلّ حقيقة من الحقائق الكونية تحرر الناظر من العبثية بإثبات أموراً ثلاثة في آن واحد: وجود واجب الوجود، وأسمائه وصفاته، ثم تبني الحشر على تلك الأمور وتثبته، فيستطيع كلّ شخص من أعتى المنكرين إلى أخلص المؤمنين أن يأخذ حظّه من كلّ حقيقة، لأنّها تلفت الأنظار إلى الموجودات والآثار، ويكتشف في هذه الموجودات أفعالا منتظمة، والفعل المنتظم لا يكون بلا فاعل؛ فيخلص وفق منطق عقلي صارم إلى التصريح بأنّ لها فاعلا. ولما كان الفاعل يفعل فعله بالانتظام والنظام يلزم أن يكون حكيماً عادلاً، وحيث أنّه حكيم، فلا يفعل عبثاً وحيث أنّه يفعل بالعدالة فلا يضيّع الحقوق، فلا بد إذن من محشر أكبر ومحكمة كبرى.[1] واستحضار الحشر في مباشرة الفعل الاجتماعي يؤسس للعمل

– العزوف عن العدالة وما تسببه من عزلة كونية واجتماعية:

التناقض مع الكون:

يستشف برهان العدالة من سير الكون وثباته المستمر الهادف، إذ لا يمكن قبول تلك النتيجة الساطعة البيّنة الأشبه بالبديهية، ما لم نقبل بشكل قطعي

١. الملاحق ٧٣

بوجود العدالة والحكمة البالغة في جميع مظاهر الكون، ولوضوحها يعدّ إنكارها تناقض ما بعده تناقض يصل حدّ الجنون أو الغفلة المحكّمة على الأقل، لأنّ إنكارها في غاية الجنون والسفه، لأنّ الربّ السرمدي والسلطان الأبدي أظهر في الكون عدالة عالية غالية مشفوعة بآثار حكمة باهرة ماهرة، وعناية ظاهرة، ومرحمة واسعة جامعة، بدرجة يعرف باليقين مَن لم يكن على عينه غين وفي قلبه رين، أنّه ليس في الإمكان أكمل من حكمته، وأجمل من عنايته، وأشمل من مرحمته، وأجلّ من عدالته، فلو لم تكن في دائرة مملكته – في ملكه وملكوته – أماكن دائمة عالية، ومساكن قائمة غالية، وسواكن مقيمة خالدة، لتكون تلك الأمور مظاهر لتظاهر حقائق تلك الحكمة والعناية والرحمة والعدالة، للزم حينئذٍ إنكار هذه الحكمة المشهودة لذي عقل، وإنكار هذه العناية المبصرة لذي بصيرة، وإنكار هذه الرحمة المنظورة لذي قلب، وإنكار هذه العدالة المرئية لذي فكر، وللزم قبول كون صاحب هذه الأفعال الحكيمة الرحيمة الكريمة العادلة.. حاشا، ثم حاشا!.. سفيهاً لعّاباً وظالماً غدّاراً، فيلزم انقلاب الحقائق.[1]

وإنكار العدالة الكونية أو تضليلها لا يختلف عن إنكار وجوب العدالة أو تضليلها في التقاضي بين الناس، يشهد لهذه المعاني قول الأستاذ بديع الزمان: "أما أنتم يا أعداءنا المتسترين ويا أولئك الذين يضللون العدالة في سبيل إرضاء الزندقة ويتسببون في خلق الأوهام الزائفة في أذهان المسئولين في الدولة لينشغلوا بنا دون داع أو سبب.. اعلموا قطعاً، ولترتعد فرائصكم، إنّكم تحكمون على أنفسكم بالإعدام الأبدى وبالسجن الإنفرادى الدائم.وأنّ انتقامنا يؤخذ منكم أضعافاً مضاعفة، فها نحن أولاء نرى ذلك ونشفق عليكم. ولاشك أنّ حقيقة الموت التي ظلت تفرغ هذه المدنية مائة مرة إلى المقابر، لابد أن تكون لها غاية

---

١. انظر المثنوي العربي النوري ٩٩

ومطلب فوق غاية العيش والحياة. وأنّ محاولة الخلاص من براثن ذلك الإعدام الأبدي هي قضية في مقدمة القضايا الإنسانية، بل هي من أهمّ الضروريات البشرية وأشدّها إلحاحاً."[1]

وإنكار العدالة لا يختلف عن التضليل باسمها أو تضليلها لما يترتّب عليها من ظلم وتأسيس للاستبداد ومناصرته، فقد أظهر الزمان أنّ دولا تسمى داعية الحرية، قد كبّلت بعدد ضئيل من موظفيها المستبدين أكثر أهل الكرة الأرضية، وسيطرت عليهم كأنّهم عدد ضئيل، حتى لم تتركهم يحركون ساكناً، ونفّذت قانونها الجائر عليهم بأقسى صورة من صور الظلم، آخذة آلاف الأبرياء بجريرة مجرم واحد. وأعطت لقانونها الجائر هذا اسم العدالة والانضباط. فخدعت العالم ودفعته إلى نار الظلم.هذه الدول غدت مقتدى ذلك الاستبداد القادم في المستقبل.[2] وفي ذلك أبين صور العزوف عن العدالة.

لقد جاءت تلك الدول باسم العدالة والحرية فأسست للظلم والاستبداد أو على الأقل سكتت عنه، أليس في تصرفاتهم ما يدل بنفسه على نقائض ما رموا إلى إشاعته من حرية وعدالة؟

أين ننزل سعي المستبدين إلى إفناء الأبرياء من أطفال وعائلات وشيوخ ومرضى بالقنابل المدمّرة بحجة وجود جندي أو اثنين من جنود الأعداء فيما بينهم.. وأين نصنّف اتفاق أعتى المستبدين من البرجوازيين مع الفوضيين والمتطرفين، وفي أي خانة نضع إهدار دماء ألوف بل ملايين من الأبرياء.. والاستمرار في هذه الحرب الضارة للإنسانية جمعاء.. وردّ الصلح والسلام، ونظرا لعدم الالتئام تلك التصرّفات مع العدالة؛ فإنّ الإسلام والقرآن الكريم

---

١. الشعاعات ٤٣٥

٢. انظر الملاحق ١٢٦

بريئان بلا شك من مثل هذه الحروب المدمرة التي لا تنسجم مع أي قانون كان من قوانين العدالة ولا مع الإنسانية ولا مع أي دستور كان من دساتير الحقيقة وقوانين الحقوق، ومن ثمّ لا تتنازل الأصول الإسلامية المستمدة من الـــوحيين (الكتاب والسنّة) ولا يتذلّل لمعاونة أولئك الفراعنة المتقدمين والمتأخرين، لأنّها إن عاونتهم الآن مكّنت لفرعونية رهيبة ومصلحية عجيبة تستحوذان على دنيا الناس، بل ويتعدى خطرهم إلى محاولة جعل الإسلام وكتابه العظيم (القـــرآن الكريم) آلتين طيعتين في سبيل مآربهم.

لا شك أنّ أحقية القرآن تأبى الاستناد إلى سيوف ظالمين كهؤلاء أو من نسج على منوالهم من السفلة، بل يتعيّن على أهل القرآن ويجب عليهم الاستناد إلى قدرة رب العالمين ورحمته بدلاً من الاستناد إلى قوة عجنت بدماء ملايين الأبرياء.[1]

العذاب المعنوي والمادي:

يسبب العزوف عن العدالة بمفهومها العام عذابا معنويا ثم ماديا في قابـــل الأيام، والتاريخ البشري المتكرر يؤكّده، وأظهر شاهد معاصر على ذلك، مـــا أنـــزلته العدالة الإلهية بالمدنية الدنيّة التي حاولت إهانة أكبر شاهد على العدالة المنظورة والمسطورة – الإسلام– فأذاقت أهله عذاباً أليماً ومعنويـــاً؛ فأرداهـــا ذلك التصرّف الأرعن درك الوحوش الجاهلين. فلقد أزالت تلـــك المخـــاوف المستمرة ملذات وأذواق مدنية أوروبا والإنكليز مائة سنة وطيرت منهم نشوتهم من الرقي والتسلط على رقاب الآخرين ونشوة الاستيلاء عليهم."[2]

ومن مظاهر ذلك العذاب أيضا، "أنّ (الحد) أو (العقاب) عندما يقام امتثالاً للأمر الإلهي والعدل الرباني فإنّ الروح والعقل والوجدان واللطائف المندرجة في

---

١. انظر الملاحق ٢٠٣

٢. الملاحق ١١٤

ماهية الإنسان تتأثّر به وترتبط به، فلأجل هذا المعنى، يقول الأستاذ بديع الزمان: "أفادتنا إقامة حد واحد طوال خمسين سنة أكثر من سجنكم في كل يوم، ذلك لأن عقوباتكم التي تجرونها باسم العدالة لا يبلغ تأثيرها إلاّ في وهمكم وخيالكم، إذ عندما يقوم أحدكم بالسرقة يَرِد إلى خياله العقاب الذي ما وضع إلاّ لأجل مصلحة الأمة والبلاد ويقول إنّ الناس لو عرفوا بأنّي سارق فسينظرون إليّ نظرة ازدراء وعتاب، وإذا تبيّن الأمر ضدّي ربما تزجّني الحكومة في السجن.. وعند ذلك لا تتأثرُ إلاّ قوته الواهمة تأثراً جزئياً، بينما يتغلب عليه الميل الشديد إلى السرقة والنابع من النفس الأمّارة والأحاسيس المادية – لاسيما إن كان محتاجاً – فلا ينفعه عقابكم لإنقاذه من ذلك العمل السيء. ثم لأنه ليس امتثالاً للأمر الإلهي فليس هو بعدالة، بل باطل وفاسد بطلان الصّلاة بلا وضوء وبلا توجّه إلى القبلة، أي أنّ العدالة الحقة والعقاب الرادع إنّما يكون إذا أُجريت امتثالاً للأمر الإلهي وإلاّ فإنّ تأثير العقاب يكون ضئيلاً جداً."[1]

– العدالة مظهر الالتزام بالفضائل الإسلامية:

الحمية الحقة والوفاء الصادق والعدالة الخالصة لا تجري إلاّ على يد إنسان تزيّن قلبه وعقله بالفضائل الإسلامية، ولا يؤدي الغرض تزيّن القلب أو العقل منفردين.بل يجب أن تشملهما معا، وبذلك تجتمع الفضيلة والصنعة، ذلك أنّ الصنعة غير الفضيلة، فقد يقوم الفاسق برعي الأغنام رعياً جيداً، وقد يصلّح شارب الخمر ساعةً بإتقان حين لا يكون سكرانَ، فلم تجتمع فيهما الفضيلة والصنعة، وهو ما يدعوا للأسف حيث يقول رحمه الله: "وا أسفى على ندرة الذين جمعوا النورَين معاً: نور القلب ونور الفكر، أو بعبارة أخرى الفضيلة

١. صيقل الإسلام ٥٢٣

والصنعة، فهم نادرون لا يكفون لملء الوظائف، فإذاً إما الصلاح وإما المهارة... وإذا تعارضا فالمهارة مرجحة في الصنعة."[1]

يدفع تبني العدالة إلى الجمع بين المهارة والصنعة، فتصبح الأسبقية والأولوية للجمع بين العنصرين، وهذا يفرض لا يمنح الانتماء العرقي الصدارة؛ فالواجب تأخير عنصر القومية، وبهذا نيسّر امتزاج العناصر والقوميات بالإسلام امتزاج جزيئات الماء، إذ تمكين الإسلام من النفوس يسمح له بأن يفعل فعل التيار الكهربائي فيهم. فتمزج العدالة المنصفة المتولّدة من حرارة نور المعارف الإسلامية، وتديم الحرية النيّرة المسترشدة بتربية حقيقة الشريعة.[2] ويؤسس إجراء العدالة للسعادة البشرية في الدنيا والآخرة.[3]

١. صيقل الإسلام ٣٩٣

٢. انظر صيقل الإسلام ٤٦٢؛ سيرة ذاتية ٨٤

٣. انظر صيقل الإسلام ٥٢٣

obeikandl.com